بسم الله الرحمن الرحيم

الأسباب ودورها في تحقيق المقاصد: دراسة تطبيقية للقصة القرآنية

يوسف الزيوت

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد: فإن القرآن الكريم قد دعا قارئيه من أولي الألباب والنهى، إلى إنعام النظر والتدبر في آياته، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

إن قراءتي لطائفة من آيات القصص القرآني لفتت نظري نحو مقصد من مقاصد القرآن الكريم، فقد دأب الكتاب الحكيم على ترسيخ هذه المقاصد بين المكلّفين؛ وهذا المقصد الذي نريد أن ننوّه به هو: الأخذ بالأسباب ومباشرتها في قضاء الحاجات وتحقيق المقاصد والغايات. والغرض هو إبراز ما فهمناه من تفعيل القرآن الكريم لدور الإنسان في تحقيق مقاصده من خلال القصة القرآنية. وجعلت هذا البحث في مقدمة ومطلبين وخاتمة. وقد وضحت في المطلب الأول علاقة الأسباب بالمسببات بين النفي والإثبات وأن الأخذ بالأسباب سنّة إلهية في الكون، مشيرًا إلى وجه الحكمة من مراعاة الأسباب. وأما المطلب الثاني فهو دراسة تطبيقية للقصة القرآنية عرضت فيه لجملة من المشاهد التي هدى الله تعالى فيها أشخاص القصة إلى مراعاة الأسباب ومباشرتها والجهد المقدور وبذل ما في الاستطاعة. ثم ذكرت في الخاتمة أبرز النتائج التي خرجت بها.

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى لفت الأنظار وتذكير العقول بأن القرآن الكريم يأمر الإنسان ـ في كل

١- سورة ص، الآية: ٢٩.

الأحوال والظروف ـ بمراعاة الأخذ بالأسباب المتاحة والمبادرة إلى تحمل المسؤولية ومباشرة الفعل وعدم الركون أو التخاذل والاستسلام للمصير المحتوم وعدم الاعتماد على التدخل الإلهي واللطف الرباني في تصريف الأمور وتحقيق المقاصد والغايات. وإن هذا التأكيد على ضرورة مباشرة الإنسان لما يمكن أن يفعله بقدرته وطاقته المحدودة، نجده مبثوثًا في ثنايا القصص القرآني؛ ومن المعلوم أن القصص القرآني ـ لاسيما قصص الأنبياء ـ كثيرا ما يتضمن عنصرا هاما من الحوادث التي هي من قبيل المعجزات وخرق القوانين، ومجاوزة علاقة الأسباب بالمسببات في تحقيق المقاصد والغايات، ومع ذلك فإننا نجد القرآن الكريم ـ حتى في أجواء المعجزات الخارقة ـ يأمر الإنسان ويدعوه إلى تحمل مسؤوليته وتقديم ما بوسعه أن يفعله ولا ينتظر أن تنفرج الأمور وتنحل العقد والمشكلات وتتحقق المطالب والغايات بلمسة ربانية خالصة وعناية إلهية مباشرة في منأى عن دور الإنسان وحركته، وهذا الموقف القرآني ينذر المتقاعسين ويندد بالمتخاذلين وينبّه المتواكلين الذين يتوكلون بزعمهم على الله والاعتماد عليه، والمعوّلين على تأييده لهم وقضاء حوائجهم بغير جهد منهم.

فعلى سبيل المثال نجد القرآن يأمر نوحًا عليه السلام أن يصنع الفلك ثم يحمل فيها أزواج الكائنات، ويأمر إبراهيم عليه السلام بعد بناء البيت العتيق ـ أن يؤذن للناس بالحج، ويأمر مريم عليها السلام أن تهز النخلة، ويأمر موسى عليه السلام أن يضرب الحجر بعصاه، ويأمر لوطًا عليه السلام أن يسري ليلًا بمن معه.

فقد أمر الله تعالى عباده بالتزود بالوسائل ومباشرة الأسباب ومراعاتها، وهو قادر على تحقيق حاجات أنبيائه، وقضاء مطالب رسله ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ من غير أدنى جهد أو فعل منهم، ولكنه تعالى أراد أن يربط الأسباب بالمسببات فهو يعلمنا في كل الأحوال والظروف أن نبذل جهدنا ونقوم بدورنا للوصول إلى أهدافنا وتحقيق مقاصدنا.

الدراسات السابقة:

تحدث الكتّاب والمؤلفون والمفسرون والباحثون في القصص القرآني واعتنوا به عناية فائقة من وجوه تفصيلية كثيرة وبيّنوا ما فيه من دروس وعبر وعظات، غير أنهم لم ينتبهوا أو ينبّهوا بصورة ظاهرة جلية إلى ما دعا إليه القرآن الكريم وحثّ عليه ـ بأسلوب غير مباشر ـ في ثنايا القصة من وجوب قيام الإنسان بدوره، والأخذ بما يستطيعه من الفعل وبذل الجهد في تحقيق مقاصده وغاياته، أسوة بالأنبياء وكذلك بأشخاص القصة القرآنية الذين أمرهم الله تعالى أن يباشروا بأنفسهم من الأسباب ما يحقق

مطالبهم وغاياتهم. لأجل هذا أردت في هذا البحث أن أجلي هذه المسألة الإيمانية وأنبه إلى هذا المطلب القرآني الذي من شأنه أن يقدّر دور الإنسان حق التقدير كما أراد العلي القدير حتى يدعوه الشعور بذلك إلى تحمل المسؤولية كما ينبغي. ولا شك أن تحقيق المقاصد وبلوغ الغايات مع بذل الجهد والعمل والمعاناة، له وقع طيب على النفس فيبعث فيها الثقة والإقدام والشجاعة، إضافة إلى ما يجده الإنسان من لذّة ومتعة وراحة وطمأنينة نفسية بصورة أفضل تنشأ من جرّاء الشعور بالإنجاز الشخصي، بل ربما لا تقارن هذه الحالة بما يناله الإنسان ويحققه بغير معاناة ومباشرة منه.

المطلب الأول: الدعوة العامة لمراعاة الأسباب في القرآن الكريم:

المتتبع لسور القرآن الكريم وآياته يلحظ ظاهرة بارزة مضطردة ومقصدًا واضحًا من مقاصد القرآن الكريم، ألا وهو لفت الأنظار ودعوة العاملين من المكلفين وحض القاصدين وأمر الفاعلين ودعوتهم إلى الأخذ بالأسباب، واتخاذ كل الوسائل والسبل والتدابير المشروعة لتحقيق مقاصدهم وتيسير مطالبهم، وتسهيل ما يرجونه ويبحثون عنه.

يُلحظ هذا المسلك في جميع المجالات التي يطرقها الإنسان: في حربه وسلمه، وفي يقظته ونومه، وفي أكله وشربه، وفي حرثه وزرعه، وفي زواجه ونسله، بل وفي عبادته وطاعته وقربه لله تعالى، فإنك تجد القرآن الكريم لا يترك مطالبة الإنسان أن يقوم بدوره وأن يبذل جهده وما في وسعه وأن يبادر فلا يتكاسل ولا يتوانى عن مباشرة كل ما يمكن أن يحقق له مراده وقصده، فلا يتعلل بعلل واهية، ولا يتذرع بذرائع باطلة، فيتعلق بالقدر، ويقول لنفسه: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، كما نسمعه من بعض الأشخاص الذين أساءوا فهم القدر والتوكل على الله تعالى، واعتبروا التكاسل والفرار من الموقف توكلًا على الله وثقة به تعالى، حتى مع تقصيرهم في مراعاة الأسباب التي شرعها الله تعالى وأمر بها لتحقيق المقاصد والغايات، فوقعوا في مخالفة الشرع والعقل معًا، ونسوا تصريح العقل والنقل أن المقاصد إنما تنال بالأسباب، والغايات تدرك بالسعي والاجتهاد إلى جانب التوكل على الله تعالى.

وفي هذا المطلب سأناقش ثلاث مسائل : أما المسألة الأولى فأوضّح فيها علاقة الأسباب بالمسببات بين دعوى نفي السببية وبين القول بإثبات تأثير الأسباب في المسببات. وأبين في المسألة الثانية أن الأخذ بالأسباب سنّة إلهية في الكون، إذ أنه تعالى وتبارك قد ربط المسببات بالأسباب في كل شأن من مظاهر الكون والحياة. وأما المسألة الثالثة فجعلتها لبيان وجه الحكمة من الأمر بمراعاة الأسباب، وأن في ذلك من مظاهر الحكمة البالغة التي اقتضتها المشيئة الإلهية ما لا يسع الإنسان العاقل تجاهلها والتفريط فيها.

المسألة الأولى: علاقة الأسباب بالمسببات بين النفي والإثبات:

كان وما زال ـ الخلاف قائمًا في مسألة علاقة الأسباب بالمسببات من حيث الإثبات والنفي، بين إفراط وتفريط، وهدى الله أهل الحق والعقل إلى سلوك مسلك الوسط، فصار في المسألة ثلاثة مذاهب[٢].

يقول الدكتور محمد العروسي في بيانه لهذه المسألة: "اختلف الناس في الأسباب وأثرها في مسبباتها، ومنشأ الخلاف في هذه المسألة هو الخلاف في قدرة العبد وهل لها تأثير في المقدور؟ ثم انتقل الخلاف إلى أسباب الأحكام وعللها وتأثير ذلك عليها.

والناس في هذه المسألة على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن الأسباب لا تأثير لها البتة في مسبباتها، ويصل هذا القول إلى درجة إنكار المناسبة بين الحكم والسبب:

وهذا القول منسوب إلى الأشاعرة[٣] وإلى بعض الحنفية وابن عقيل من الحنابلة، وقالوا: إن الأسباب لا تأثير لها في الأحكام. قال الآمدي: "وإذا أطلق على السبب أنه موجب للحكم فليس معناه أنه يوجبه لذاته وصفة نفسه وإلا كان موجبًا له قبل ورود الشرع، وإنما معناه أنه معرف للحكم لا غير"[٤].

ويتابع العروسي قائلًا: "ثم عرّف الزركشي السبب بأنه عبارة عن: ما يحصل الحكم عنده لا به. وجعل الزركشي هذا التفسير للسبب هو المعنى اللغوي له فقال: السبب لغة: عبارة عما يحصل الحكم عنده لا به. أي أنه ليس بمؤثر في الوجود بل وسيلة إليه، ومثّل له بالحبل في أنه يتوصل به إلى إخراج الماء من البئر، وليس هو المؤثر في إخراج الماء إنما المؤثر حركة المستقي للماء، وما قاله الزركشي في معنى السبب لغة، مخالف لقول أهل اللسان، فإنهم قالوا عن السبب: إنه كل شيء يتوصل به إلى غيره، كما هو في عرف الفقهاء، فإنهم يقولون عن السبب بأنه ما يتوصّل به إلى الحكم، وأما ما قاله الزركشي فهو اصطلاح أهل الكلام لا تعريف أهل اللغة.

٢- علي عبد الفتاح المغربي ، **الفرق الكلامية الإسلامية: مدخل ودراسة**، مكتبة وهبة، ط ١، ١٩٨٦م، ص ٤٠٩.

٣- القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، **تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل**، تحقيق: الشيخ عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١ ، ١٩٨٧م، ص ٥٦-٥٩، سيف الدين عبد الرحمن بن محمد الآمدي، **غاية المرام في علم الكلام**، تحقيق: الأستاذ حسن محمود عبد اللطيف الشافعي، القاهرة، ١٩٧١م، ص ٢٠٧، السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني، **شرح المواقف في علم الكلام**، تحقيق: أحمد المهدي، مكتبة الأزهر، ١٩٧٦م، ص ٢٣٧.

٤- سيف الدين عبد الرحمن بن محمد الآمدي، **الإحكام في أصول الأحكام**، مكتبة محمد علي صبيح، القاهرة، ١٩٦٨م، ج ١، ص ١٨٣.

ولا يجيز هؤلاء أن يقول الإنسان: إنه شبع بالخبز وروي بالماء، بل يقولون: شبعت عنده ورويت عنده، أي أن الشبع والري حصلا بمجرد مقارنة الخبز والماء للمعدة لا أنه كان سببًا في ذلك. فهم يقولون بأن الله سبحانه يخلق الري والشبع ونحو ذلك عند هذه المقترنات بها عادة لا بها نفسها. فهذه الأسباب ليست أسبابًا مؤثرة ووجودها كعدمها، وليس هناك إلا مجرد اقتران عادي كاقتران الدليل بالمدلول(٥).

وهذا ابن عقيل من الحنابلة لم يكتف بمتابعة الأشاعرة في هذه المسألة بل خطّأ الحنفية في قولهم: إن الماء يزيل الحدث بنفسه، فذكر في كتابه **الواضح في أصول الفقه** أن أهل الفقه الخراسانيين من أصحاب أبي حنيفة قالوا في مسألة طهارة الحدث: لا يفتقر إلى نية، لأن طبع الماء إزالة الحدث والنجس فلا يفتقر في كونه رافعًا إلى نية(٦). وابن عقيل تابع الأشعري في إنكار طبائع الأشياء، ولذلك قال عقيب كلامه الآنف الذكر: "وما ذلك إلا خطأ كبير لمن كشفنا له عن حقيقة القول بالطبع، ثم قال: اعلم أن إضافة الفعل إلى الشيء تكون من وجوه كثيرة ..." الخامس: السبب، قال ابن عقيل: "وفيه وقع الخلاف فلا فاعل للري ولا للشبع ولا إخراج الصفراء، ولا تبريد ولا تسخين ولا إحداث طعم وإنشاء لون وإيجاد خاصة إلا الله سبحانه"(٧).

قلت: هذا القول عن الأشاعرة وبعض الأحناف وابن عقيل من الحنابلة هو قول الجهمية أتباع الجهم بن صفوان من قبل(٨). حيث يرى الجهم أنه لا فعل لأحد غير الله تعالى، والإنسان مجبور على عمله، والأعمال تنسب إلى الإنسان مجازًا كما تنسب إلى الجماد، فالإنسان والجماد عنده لا يختلفان، فقولنا كتب فلان وقتل، مجازات كما يقال أثمر الشجر وتحرك الحجر(٩).

٥- شيخ الإسلام تقي الدين أحمد ابن تيمية، **منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية**، تحقيق: محمد رشاد سالم، مكتبة خياط، بيروت، ج ١، ص ١٢٨.

٦- انظر: ابن عقيل، **الواضح في أصول الفقه**، تحقيق: عبد الله محسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ج ١، ص ٢٤٤.

٧- محمد العروسي عبد القادر، **المسائل المشتركة بين أصول الفقه وأصول الدين**، دار حافظ للنشر والتوزيع، ط ١، ١٩٩٠م، ص ١٧٩- ١٨١.

٨- انظر: شمس الدين أبو عبد الله ابن قيم الجوزية، **اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية**، تحقيق: عواد عبدالله المعتق، مكتبة الرشيد، الرياض، ط٤، ٢٠٠٥م، ص ٦٢- ٦٣.

٩- انظر: محمد أبو زهرة، **تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية**، دار الفكر العربي، ج١، ص ١٠١- ١٠٢.

وذكر الشهرستاني هذا القول وعدّه من آراء الجهم فقال: "ومنها قوله في القدرة الحادثة: إن الإنسان ليس يقدر على شيء ولا يوصف بالاستطاعة، وإنما هو مجبور في أفعاله، لا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار، وإنما يخلق الله فيه الأفعال على حسب ما يخلق في سائر الجمادات، وينسب إليه الأفعال مجازًا كما ينسب إلى الجمادات، كما يقال أثمرت الشجرة وجرى الماء وتحرك الحجر، وطلعت الشمس وغربت، وتغيّرت السماء وأمطرت، وأزهرت الأرض وأنبتت، إلى غير ذلك"(١٠).

فالجهم بن صفوان هو أول من قال بنفي تأثير الأسباب في المسببات ونفي قدرة الإنسان واستطاعته، وجعل الأشياء كلها واقعة بقدرة الله، والإنسان لا قدرة له ولا استطاعة وأنه مجبور ومسير كالريشة في مهب الريح، وانتقل هذا القول إلى الأشاعرة ومن وافقهم على ذلك(١١).

القول الثاني: أن الأسباب مؤثرة وفاعلة بذاتها:

وهذا قول المعتزلة حيث يقولون: إن الأسباب لها تأثير في مسبباتها، فالسبب عندهم يوجب الحكم، والعلة تؤثر في معلولها(١٢). قال القاضي عبد الجبار المعتزلي في بيان رأي المعتزلة في أفعال العباد: "اتفق كل أهل العدل على أن أفعال العباد من تصرفهم، وقيامهم وقعودهم حادثة من جهتهم، وأن الله عز وجل أقدرهم على ذلك، لا فاعل لها ولا محدث سواهم، وأن من قال إن الله سبحانه خالقها ومحدثها، فقد عظم خطؤه، وأحالوا حدوث فعل من فاعلين"(١٣).

القول الثالث: إثبات تأثير الأسباب الطبيعية في المسببات بإرادة الله ومشيئته:

وهذا قول أكثر الحنفية، وهو رأي جمهور أهل السنة، فهم يقولون بأن الأسباب مؤثرة وفاعلة في المسببات بإرادة الله تعالى ومشيئته في حال تحقق الشروط وانتفاء الموانع التي يمكن أن تحول دون ظهور تأثير الأسباب في المسببات، وأن تأثير الأسباب ليس صفة حتمية لها، فهم لا يلغون تأثير الأسباب

١٠- أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، **الملل والنحل**، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٠م، ج ١، ص ١١٠- ١١١، عبد القاهر بن طاهر البغدادي، **الفرق بين الفرق**، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار المعرفة، بيروت، ص ٩٩.

١١- راجع: علي سامي النشار، **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام**، دار المعارف، القاهرة، ط ٨، ١٩٨١م، ص ٧٨.

١٢- انظر: محمد العروسي، **المسائل المشتركة**، ص١٨٢، ابن القيم، **اجتماع الجيوش** (مناقشة مواقف المعتزلة من الأسباب).

١٣- عبد الجبار بن أحمد قاضي القضاة، **شرح الأصول الخمسة**، تحقيق: عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة، ط ٢، ١٩٨٨م، ص ٣٢٣، **المغني في أبواب التوحيد والعدل**، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٦٢م، ج ٨، ص ٣، انظر: ابن قيم الجوزية، **اجتماع الجيوش**، ص١٠٠، أبو زهرة، **تاريخ المذاهب الإسلامية**، ج ١، ص ١٢١.

كأصحاب القول الأول، ولا يطلقون القول بتأثيرها كقول المعتزلة، فالأكل عندهم سبب للغذاء والشبع واستدامة الحياة، ولكن بشرط سلامة أعضاء الإنسان الضرورية لتلقي الطعام والاستفادة منه، وانتفاء الموانع أي العوائق التي تعيق عمل هذه الأعضاء في انتفاعها من الأكل. فالزرع سببه حرث الأرض وإلقاء البذر، وشرطه صلاحية الأرض للإنبات وصلاحية هذا البذر للنبات، وتوفر الماء الكافي، وانتفاء الموانع من خروج النبات والثمر، كانتفاء الآفات التي تهلك الزرع أو الثمر أو تمنع نموّه وهكذا(١٤). وهذا ما صرح به غير واحد من أهل العلم فقال الإمام الشاطبي رحمه الله: "وأما إذا لم تفعل الأسباب على ما ينبغي ولا استكملت ولم تنتف موانعها فلا تقع مسبباتها شاء المكلف أم أبى، لأن المسببات ليس وقوعها أو عدم وقوعها لاختياره. وأيضًا فإن الشارع لم يجعلها أسبابًا مقتضية لمسبباتها إلا مع وجود شرائطها وانتفاء موانعها، فإذا لم تتوفر لم يستكمل السبب أن يكون سببًا شرعيًا سواء علينا أقلنا: إن الشروط وانتفاء الموانع أجزاء الأسباب أم لا، فالثمرة واحدة"(١٥).

وهذا ما أكده الإمام ابن تيمية، في أكثر من موضع في فتاويه، وغيره من العلماء وأنكروا على نفاة الأسباب نفيهم تأثيرها في مسبباتها وعدوا ذلك مخالفة صريحة للحس والعقل والشرع والفطرة، وسائر طوائف العقلاء، بل على حد قول ابن القيم: "قد أضحكوا عليهم العقلاء"(١٦)، فقد رتب الله سبحانه في كتابه المعلول على العلة والمسبب على السبب، وهذا في القرآن يزيد على ألف موضع... وبالجملة فالقرآن من أوله إلى آخره صريح في ترتيب الجزاء بالخير والشر، والأحكام الكونية والأمرية على الأسباب بل

١٤- انظر: عبد الكريم زيدان، **السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٩٩٣م، ص ٢٨.

١٥- إبراهيم بن موسى بن محمد الشاطبي، **الموافقات في أصول الشريعة**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٩م، ج١، ص٢١٨.

١٦- شمس الدين أبو عبد الله ابن قيم الجوزية، **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي**، دار الريان للتراث، القاهرة، ١٩٨٠م، ص ١٤ -١٥، وانظر: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، مكتبة المعارف، الرباط، المغرب، ج ٨، ص ٧٠، ١٣٣، ١٦٧- ١٧٥، شمس الدين أبو عبد الله ابن قيم الجوزية، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٢م، ج ١، ص ٩٤-٩٥، ٢٤٣-٢٤٤، ج ٢، ص ١١٨-١٢٠، أبو محمد علي بن أحمد ابن حزم، **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، تحقيق: عبد الرحمن عميرة وآخر، شركة عكاظ، ط ١ ، ١٩٨٢م، ج ٣، ص ١١١-١١٢.

ترتب أحكام الدنيا والآخرة ومصالحها ومفاسدها على الأسباب والأعمال(١٧).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ومحو الأسباب أن تكون أسبابًا، نقص في العقل وهو طعن في الشرع أيضًا، فالله تعالى يقول: ﴿ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾(١٨)، وأمثال ذلك. فمن قال يفعل الله عندها، أي عند الأسباب أو معها، لا بها، فقد خالف لفظ القرآن مع أن الحس والعقل يشهدان أنها أسباب، ويعلم الفرق بين الجبهة والعين في اختصاص أحدهما بقوة ليس في الآخر، ويعلم الفرق بين الخبز والحصى في أن أحدهما يحصل به الغذاء دون الآخر"(١٩).

كما أنكروا على المعتزلة إفراطهم في إثبات تأثير الأسباب واستقلالها في المعلولات والتأثيرات في معزل عن إرادة الله ومشيئته، وأن الإنسان فاعل لفعله وخالق لعمله. وقد عدّ ابن القيم رحمه الله هذا القول ضلالًا فقال: "وأما الفرقة الضالة المعتزلة فإنهم اعتقدوا انفراد العبد بالخلق، ثم صاروا على أنه إذا عصى فقد انفرد بخلق فعله والرب كاره له، فكان العبد على هذا الرأي الفاسد مزاحمًا لربه في التدبير موقعًا ما أراد إيقاعه شاء الرب أو كره". ووصفهم بأنهم مجوس الأمة فقال: "وخالف في ذلك مجوس الأمة فأخرجت طاعات ملائكته وأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين ... عن ربوبيته وتكوينه ومشيئته بل جعلوهم هم الخالقين لها... وقد نادى القرآن بل الكتب السماوية كلها والسنة وأدلة التوحيد والمعقول على بطلان قولهم ... ثم ذكر رأي الجبرية وقال: والطائفتان في عمى عن الحق القويم والصراط المستقيم"(٢٠).

شبهة وردّها:

بعد عرض الأقوال في مسألة علاقة الأسباب بالمسببات والعلل بالمعلولات والآثار بالمؤثرات، وتقرير القول بأنها فاعلة ومؤثرة ومنتجة إذا تحققت الشروط وانتفت الموانع والعوائق، هنا ينشأ سؤال يعده البعض مشكلًا وهو: هل يتعارض القول بفاعلية الأسباب مع الإيمان بوجود الله وأنه الرب الخالق لا شريك له؟

وفي الإجابة على هذا الإشكال يقول الأستاذ الدكتور جعفر شيخ إدريس في كتابه **الفيزياء ووجود الخالق**:

١٧- انظر: ابن قيم الجوزية، **الجواب الكافي**، ص ١٧-١٩.

١٨- سورة المائدة، الآية: ١٦.

١٩- ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، ج ٨، ص ١٧٥.

٢٠- شمس الدين أبو عبد الله ابن قيم الجوزية، **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨م، ص ٤٩، ٥٤.

"تلك الحوادث المتسلسلة ـ سواء قلنا إنها متناهية أم غير متناهية ـ يمكن أن يكون بعضها أسبابًا وعللًا لبعض لا بمعنى العلة التامة، بل بمعنى العلة الناقصة المحدودة، فالله خالق كل شيء، وهو جاعل بعض الأشياء عللًا وأسبابًا لبعض، فليس منها ما هو علة تامة مستقلة، وإن كان علة بالمعنى المحدود، فالمؤمن البصير لا يشتطّ شطط الذين يثبتون وجود الأسباب لينفوا وجود الخالق، ولا يغلو غلو المثبتين للخالق لينفوا فاعلية الأسباب، المؤمن البصير لا يجد في نفسه حرجًا من الجمع بين إيمانه بالله الخالق لكل شيء وإقراره بفاعلية الأسباب الطبيعية، فالله الخالق للأشياء جعلها بحيث يكون بعضها أسبابًا لبعض.

والاعتقاد بتعارض الخالقية مع الفاعلية السببية جعل كثيرًا من الملحدين الغربيين يستطيلون على زملائهم المؤمنين كلما نجح العلم الطبيعي في تفسير ظاهرة من ظواهر الطبيعة بعزوها إلى سبب طبيعي، وجعل أولئك المؤمنين يحرجون من التقدم العلمي، فيبحثون عن الأمور التي عجز العلم عن تفسيرها ليشيروا إليها قائلين لأصحابهم الملحدين: ألم نقل لكم إن في الوجود ما لا يمكن تفسيره إلا بإرادة الخالق؟ وقد سخر بعض الفلاسفة من هؤلاء المؤمنين وسمّى إلههم بإله الفجوات! أي إنهم لا يجدون له مكانًا إلا في الأماكن التي لم يستطع العلم دخولها بعد.

ومما زاد من إحراج هؤلاء المؤمنين أن العلماء الطبيعيين لا يلبثون إلا قليلًا حتى يجدوا لتلك الظواهر تفسيرًا طبيعيًا فيسدوا بذلك بعض تلك الثغرات. فالملحدون من العلماء الطبيعيين يزعمون أنه لا بد لإثبات الشيء مخلوقًا لله من عدم وجود أسباب طبيعية لحدوثه، فإذا اكتشفنا أسباب حدوثه الطبيعية كفى ذلك دليلًا على أنه لم يحدث بقدرة خالق. هذه فكرة غالطة رغم شهرتها، وانتشارها بين الناس مؤمنهم وكافرهم في الشرق والغرب وعلى مدى تاريخ طويل. إن الغفلة عن هذه الحقيقة هي التي جعلت الملحدين يستطيلون على بعض المؤمنين ويتحدّونهم كلما اكتشفوا لبعض الأحداث أسبابًا لم تكن معروفة من قبل.

قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: "يا رسول الله، أرأيت أدوية نتداوى بها، ورقي نسترقي بها، وتقاة نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئًا؟ قال: هي من قدر الله"(٢١).

٢١- رواه الترمذي، كتاب الطب، باب ما جاء في الرقي والأدوية، تحقيق: بشّار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م، ج ٣، ص ٤٦٨، رقم: ٢٠٦٥.

لكن غاية ما يبلغ العلم هو أن يفسر لنا الحدوث بأسباب ثانوية، أي أسباب هي نفسها بحاجة إلى أسباب، ونحن محتاجون ـ بلا شك ـ إلى معرفة مثل هذه الأسباب في حياتنا اليومية، لكنها ليست بالأسباب التي تفسر لنا وجود الأشياء تفسيرًا نهائيًا.

وقد وجدت فكرة التنافي بين الخالقية والسببية، شائعة حتى عند بعض المسلمين، سمعت بعضهم يستدل بقوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾(٢٢)، على أن الله تعالى هو الذي يجعل الصبح صبحًا وليس كروية الأرض أو دورانها، وسمعت بعضهم يستدل بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾(٢٣)، على أن الله تعالى ينزل المطر أحيانًا من غير تبخير ولا سحاب. هذا مع أن أئمة أهل السنة ظلوا يلحّون على أن من سنة الله تعالى أن يفعل ويخلق بالأسباب، فعزو الحوادث إلى فعله لا ينافي كونها حصلت بأسباب جعلها الله أسبابًا لها... فالذي نعرفه من كلامه تعالى، ومن مشاهدتنا لمخلوقاته أنّ من سنته أن يخلق الأشياء بأسباب... فهو الذي خلق هذه الأسباب وجعلها أسبابًا، فهي لا تؤثر إلا بقدرته ومشيئته، لكن لا تنافي بين هذا وبين أن تكون تأثيراتها حقيقية كما تدل على ذلك لغة القرآن الكريم. فنحن نجد في كثير من آيات الكتاب العزيز عزو بعض الأفعال إلى الأسباب المخلوقة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(٢٤). وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾(٢٥). وقوله تعالى: ﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾(٢٦). فاستعمال باء السببية في هذه الآيات يدل على أن النجوم سبب حقيقي للرؤية، وأن الماء سبب حقيقي لإخراج النبات، وأن العصا سبب حقيقي للهش. لكن الخالق للنجوم وللماء وجاعلها أسبابًا هو الله تعالى، ولذلك قال الله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ﴾ علمًا بأن التعبير عن السببية ليس محصورًا في باء السببية، بل هناك طرق كثيرة في اللغة للتعبير عنها

٢٢- سورة الأنعام، الآية: ٩٦.

٢٣- سورة الشورى، الآية: ٢٨.

٢٤- سورة الأنعام، الآية: ٩٧.

٢٥- سورة الأنعام، الآية: ٩٩.

٢٦- سورة طه، الآية: ١٨.

نجدها في القرآن الكريم، ومن ذلك إسناد الآثار والأفعال إلى بعض الأشياء، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٢٧). وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾(٢٨)، فهذه كلها أسباب حقيقية تحدث الآثار بها لا عندها أو معها كما يقول نفاة السببية"(٢٩).

وبهذا فلا تعارض ولا تناقض ولا تضاد ولا تنافي بين إثبات فاعلية الرب جل وعلا وأنه خالق الأسباب، وبين فاعلية الأسباب وأنها مخلوقة ومربوبة وخاضعة لأمر الله، إن شاء أرسلها وتركها تفعل فعلها، وإن شاء منعها وحبسها، وهي في الحالين لا تملك إلا أن تقول: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾(٣٠).

حقائق ينبغي مراعاتها في علاقة الأسباب بالمسببات عند مباشرة الإنسان السعي في تحقيق مقاصده ومطالبه(٣١):

١- أن الأسباب نوعان: أسباب شرعها الله تعالى ودعا إلى مباشرتها وأمر بها كالبيع والعمل؛ فالاتجار سبب في تحصيل الرزق، والعلاج واستعمال الدواء سبب للشفاء بإذن الله وهلمّ جرا. والنوع الثاني: أسباب غير مشروعة نهى الله عنها، وحرّم اتّباعها مثل السرقة والربا والغش والاحتكار في البيع والشراء كوسائل لطلب الرزق.

٢- أن اتّباع الأسباب ومباشرتها ومراعاتها إنما هو ابتداء من قبيل الامتثال لأمر الله وطاعته، فالإنسان وهو يباشر الأسباب، إنما هو عابد لله خاضع لأمره ونهيه. فنحن إذًا مأمورون بالأخذ بالأسباب وعدم إهمالها، لأن هذا مما يقتضيه امتثال الشرع، ومأمورون، في نفس الوقت، بتفريغ القلب من التعلق بها والاعتماد عليها والركون إليها والثقة بها ورجائها وخوفها، لأن هذا إذا استقر في قلب العبد، أوقعه في شرك الأسباب. ولهذا فالإنسان مع الأسباب ينطلق من وجهين مختلفين يجب الجمع والتوفيق بينهما؛ الوجه الأول: وجوب القيام بها وعدم إهمالها، والوجه الآخر: هو عدم اعتماد القلب عليها، فإهمالها نقص في العقل واعتماد القلب عليها نقص في الشرع.

٢٧- سورة النحل، الآيتان: ٥-٧.

٢٨- سورة النحل، الآية: ١٥.

٢٩- انظر: جعفر شيخ إدريس، الفيزياء ووجود الخالق، الرياض، ط ١، ٢٠٠١م، ص ١٣٧- ١٤٢.

٣٠- سورة فصلت، الآية: ١١.

٣١- انظر: مروان إبراهيم القيسي، معالم التوحيد، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٩٩٠م، ص ٣٢-٣٥.

٣- وعليه، ونحن نباشر الأسباب، يجب أن لا نبالغ في الحرص الزائد عليها، لأن ذلك يورث القلب حبها والاعتماد عليها واعتقاد أنها الضارة أو النافعة، وأنه لولاها لما حصلت مقاصدنا ولا تحققت مطالبنا. فلا بدّ من استحضار القاعدة الشرعية المطّردة: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾(٣٢).

٤- أن المقاصد المادية الدنيوية تنال بأسبابها التي جعلها الله طريقًا إليها، وأن المقاصد الأخروية تنال أيضًا بأسبابها المنوطة بها، ولا تحصل إلا إذا تحققت أسبابها من الطاعات والقربات والابتعاد عن الآثار والمعاصي والسيئات.

٥- أن يراعي الإنسان السبب المناسب للمقصد المناسب، فكثير من الناس يظن أن هذا سبب لتحقيق هذا المقصد، والحال أنه قد ينتج عكسه وخلافه، فمن الناس من يظن أن القوة والعدة والعدد هو سبب النصر على الأعداء، ويكون الأمر خلاف ذلك كما حصل للمسلمين في معركة حنين على ما بيّنه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾(٣٣).

ومنهم من يظن أن المال والسلطان والجاه وغير ذلك من الأسباب المادية المجردة هي سبب النجاح والسعادة والصحة النفسية، وواقع الأغنياء وأصحاب السلطة والجاه يدل على خلافه تمامًا، ولهذا قال عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله: "إن الأسباب والمسببات، من سلك طرقها على وجه كامل، أفضت به على نتائجها وثمراتها، ومن لم يسلكها أو سلكها على وجه ناقص لم يحصل له الثمرات التي رتبت على الأعمال شرعًا ولا قدرًا، وهذه توجب للعبد أن يجدّ ويجتهد في الأسباب الدينية والدنيوية النافعة مع استعانته بالله والثناء على ربه في تيسيرها وتيسير أسبابها وآلاتها وكل ما تتوقف عليه"(٣٤).

المسألة الثانية: الأخذ بالأسباب سنة إلهية في الكون:

السببية في الكون بجميع أجزائه ومكوناته وما يقع فيه، ظاهرة وهي سنة إلهية وقانون رباني، فإنه تعالى خلق المخلوقات فأتقن صنعها ، وسنّ لها سننًا وقوانين ثابتة، وربطها بها وجودًا وعدمًا، وجعل

٣٢- سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

٣٣- سورة التوبة، الآية: ٢٥.

٣٤- عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، ط ٢، ١٤٠٩هـ، ص ١٨٣.

الخروج عنها استثناءً عارضًا إذا شاء ذلك لحكمة يراها وغاية يعلمها، ومقصد يريده جلّ وعلا، وإلا فالأصل أن تقع الأحداث وتجري الأمور بأسبابها ووسائلها التي خلقها الله تعالى؛ ولأجل هذا قد اعتنى القرآن الكريم بترسيخ هذه العقيدة الإيمانية، ودعا الناس إلى وجوب مراعاتها واتباعها، وعدّ ذلك من باب طاعة الإنسان لأمر الله والخضوع له تعالى. فالمسببات مرتبطة بأسبابها، والنتائج تابعة لمقدماتها لا تتخلف إلا إذا شاء الله ـ خالقها ـ ذلك لغاية معينة(٣٥).

وقد أخذ بعض العلماء من قوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾(٣٦)، أن السعي والتسبب في تحصيل الرزق أمر مأمور به شرعًا وأنه لا ينافي التوكل على الله جلّ وعلا، وهذا أمر كالمعلوم من الدين بالضرورة، وأن الأخذ بالأسباب في تحصيل المنافع ودفع المضار في الدنيا أمر مأمور به شرعًا لا ينافي التوكل على الله بحال، لأن المكلف يتعاطى السبب امتثالًا لأمر ربه مع علمه ويقينه أنه لا يقع إلا ما يشاء الله وقوعه. فهو متوكل على الله عالم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له من خير أو شر، ولو شاء الله تخلّف تأثير الأسباب عن مسبباتها لتخلّف(٣٧).

فالله تبارك وتعالى خلق هذا الكون بكل ما فيه من إنسان وحيوان ونبات وجماد وظواهر كونية متعددة وفق أنظمة وقوانين وثوابت لا تتغير ولا تتبدل ولا تتوقف إلا إذا شاء الله جل وعلا إيقافها لغاية معينة، فالنجاح لا يكون إلا بالدراسة، والسعي سبب للرزق، وبذر الحب في الأرض سبب للزرع والحصد، وأخذ الدواء سبب للشفاء من المرض والصبر سبب للفوز(٣٨).

ومن هذه القوانين والأنظمة والثوابت وجوب الأخذ بالأسباب في سبيل تحقيق المقاصد والمطالب، فلا يقع شيء ولا يتحقق شيء ولا يذهب شيء ولا يكون شيء إلا بسبب أو أسباب جعلها الله تعالى أسبابًا، ورتّب فيها ما شأنه أن يفعل أو أن ينفعل، أن يؤثر أو يتأثر، سواء في هذا الشؤون المادية الدنيوية أو الشؤون المعنوية الأخروية، وأنه لابد من مباشرة هذه الأسباب من أجل تحصيل ما رتبه الله تعالى عليها من نتائج وآثار، ومن ظن أنه يحصل له ما يريد بغير مباشرة أسبابه فهو لا يعقل من أمره شيئًا. يقول

٣٥- انظر: منى بنت عبد الرحمن ابن داود، منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ص ٢٨- ٣٢.

٣٦- سورة مريم، الآية: ٢٥.

٣٧- انظر: محمد الأمين المختار الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر، لبنان، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ج ٣، ص ٣٩٨.

٣٨- القيسي، معالم التوحيد، ص ٣٢-٣٣، زيدان، السنن الإلهية، ص ٢١-٢٣.

ابن تيمية: "فقد جعل الله سبحانه وتعالى **للأشياء أسبابًا** تكون بها، فيعلم أنها تكون بتلك الأسباب، كما يعلم **أن هذا يولد له بأن يطأ امرأته فيحبلها، فلو قال هذا**: إذا علم الله أنه يولد لي فلا حاجة إلى الوطء كان أحمق، لأن الله علم أن سيكون الولد بما قدره من الوطء... **وكذلك إذا علم الله أن هذا يشبع بالأكل، وهذا يروى** بالشرب، وهذا يموت بالقتل، فلا بدّ من الأسباب التي علم الله أن هذه الأمور تكون بها"(٣٩).

ويقول أيضًا: "... ولهذا أمر الله الناس بالدعاء والاستعانة بالله وغير ذلك من الأسباب ومن قال : **أنا لا أدعو ولا أسأل اتكالًا** على القدر، كان مخطئًا **أيضًا؛ لأن الله جعل الدعاء والسؤال من الأسباب** التي ينال بها العبد مغفرة الله ورحمته وهداه ونصره ورزقه، وإذا قدر للعبد خيرًا يناله بالدعاء لم يحصل بدون الدعاء، وما قدره الله وعلمه من أحوال العباد وعواقبهم فإنما قدره الله بأسباب يسوق المقادير إلى المواقيت، فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب، والله خالق الأسباب والمسببات"(٤٠).

ولما ربط الله تعالى المسببات بأسبابها وأمر بمراعاتها ودعا إلى مباشرتها وحثّ على وجوب **الالتفات إليها، فإنك تجد هذا قانونًا عامًا مبثوثًا** في ثنايا السور القرآنية في كل المناسبات والأحوال. **فاسمع** إلى الدعوة العريضة في طلب العلم وبذل الجهد ومباشرة الأسباب في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾(٤١). وقوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾(٤٢). وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾(٤٣). وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾(٤٤). وقوله تعالى في بيان صفة صلاة الخوف في ميدان القتال: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ

٣٩- مجموع الفتاوى، ج ٨، ص ٦٨.

٤٠- مجموع الفتاوى، ج ٨، ص ٧٠.

٤١- سورة التوبة، الآية: ١٠٥.

٤٢- سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

٤٣- سورة الملك، الآية: ١٥.

٤٤- سورة الجمعة، الآيتان: ٩- ١٠.

تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾(٤٥). وقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾(٤٦). وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(٤٧). وقوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾(٤٨).

فهذه سنة إلهية مطّردة تجدها في كل وجوه الكون، يقول **عبد الكريم زيدان**: "**وسنة الله أو هذا** القانون الإلهي العام يقوم على الأسباب والمسببات وربط النتائج بالمقدمات على نحو هو في غاية الدقة والصرامة والاطراد... **وسنّة الله هذه** بيّنتها آيات كثيرة في القرآن الكريم، فنحن نجدها في آيات قصص **القرآن** وسيرة الأنبياء وما جرى لهم مع أقوامهم"(٤٩).

فمراعاة الأسباب سنّة إلهية وقانون رباني لا يتغير ولا يتبدل، فإن من سنّة الله تعالى في الكون أن ربط النتائج بالمقدمات والآثار بالمؤثرات والمسببات بأسبابها ووسائلها، فمن ابتغى أو طلب حاجة فلا بدّ **له من أن يسلك إليها سبلها وأسبابها** التي جعلها الله تعالى طريقًا إليها، فلا يمكن أن يحدث حدث إلا **بالأسباب** المشروعة إليه، **مادية** كانت أم معنوية أو بهما معًا، وعلى الإنسان العاقل أن يستجيب لطلب الله تعالى باتباع الأسباب ولا يركن إلى الأقدار الغيبية والكرامات الربانية والمعجزات الإلهية، كما يحدث للكثير من الناس الذين يسيئون فهم القدر والتدخل الرباني والمدد الإلهي بغير عمل.

وقد ذكر عبد الرحمن السعدي رحمه الله جملة من الفوائد العظيمة في ذكر شيء من الأسباب الموصلة إلى المطالب التي ذكرها الله تعالى **وذلك** في كتابه: **تيسير اللطيف**، فقال في التمهيد لها: "**لا ريب أن** من حكمة الله ورحمته أنه جعل العباد مفتقرين إلى جلب المنافع الدينية والدنيوية وإلى رفع المضار الدينية

٤٥- سورة النساء، الآية: ١٠٢.

٤٦- سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

٤٧- سورة الأنفال، الآية: ٤٥.

٤٨- سورة القصص، الآية: ٧٧.

٤٩- زيدان، السنن الإلهية، ص ٢٣- ٢٥.

والدنيوية، فاقتضت حكمته وسنته التي لا تتبدل إلى هذه المنافع المتنوعة وخصوصًا الأمور العظام لا تحصل إلا بالسعي بأسبابها الموصلة إليها، وكذلك المضار لا تندفع إلا بالسعي بالأسباب التي تدفعها، وقد بيّن في كتابه غاية التبيين هذه الأسباب وأرشد العباد إليها فمن سلكها فاز بالمطلوب ونجا من كل مرهوب.

فأصل الأسباب كلها الإيمان والعمل الصالح، جعل الله خيرات الدنيا والآخرة وحصولها بحسب قيام العبد بهذين الأمرين، وقد ذكر الله في القرآن من هذا شيئًا كثيرًا جدًا"(٥٠).

ثم ذكر رحمه الله ما يزيد على ثلاثين موطنًا من مواطن ربط الأسباب بالمسببات في الماديات الدنيوية والمعنويات الأخروية ونذكر هنا بعضها:(٥١).

١- جعل الله مفتاح العلم حسن السؤال وحسن الإنصات والتعلم والتقوى وحسن القصد، شاهده قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾(٥٢).

٢- وجعل الله الاستعداد للأعداء بكل مستطاع من القوة وأخذ الحذر منهم سببًا لحصول النصر والسلامة من شرورهم، شاهده قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ ﴾(٥٣). وقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ ﴾(٥٤).

٣- وجعل الله الجهاد سببًا للنصر وحصول الأغراض المطلوبة من الأعداء والوقاية من شرورهم. شاهده قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ ﴾(٥٥).

٤- وجعل الله للرزق أبوابًا وأسبابًا متنوعة، فمتى انغلق على العبد باب منها فلا يحزن، فإن الله يفتح له غيره، وقد يكون أقوى منه وأحسن، وقد يكون مثله أو دونه. شاهده قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾(٥٦). وقوله: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ ﴾(٥٧).

٥٠- السعدي، تيسير اللطيف المنان، ص ٢٧١.

٥١- انظر: المرجع السابق، ص ٣٩- ٤٤، ٢٧٢- ٢٨٠.

٥٢- سورة الأنبياء، الآية: ٧.

٥٣- سورة النساء، الآية: ٧١.

٥٤- سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

٥٥- سورة التوبة، الآية: ١٤.

٥٦- سورة النساء، الآية: ١٣٠.

٥٧- سورة التوبة، الآية: ٢٨.

وقد قسم رحمه الله الأسباب النافعة إلى نوعين: دينية ودنيوية. فالأسباب الدينية: هي من لوازم الإيمان، والأسباب الدنيوية قسمان: سبب معين على الدين ويحتاج الدين إليه، فهو أيضًا من الدين، كالسعي في القوة المعنوية والدينية التي فيها قوة المؤمنين. وسبب ليس في الأصل معينًا على الدين، ولكن المؤمن لقوة إيمانه ورغبته فيما عند الله من الخير يسلك إلى ربه وينفذ إليه مع كل سبب وطريق، فيستخرج من المباحات بنيته وصدق معرفته ولطف علمه بأنها يكون به معينًا على الخير مساعدًا للنفس على القيام بحقوق الله وحقوق عباده الواجبة والمستحبة، فيكون هذا المباح حسنًا في حقه، عبادة لله لما صحبه من النية الصادقة حتى أن بعض المؤمنين الصادقين في إيمانهم ومعرفتهم ربما نوى في نومه وراحاته ولذّاته التقوي على الخير وتربية البدن لفعل الطاعات وتقويته على الخير، وكذلك في أدويته وعلاجاته التي يحتاجها، وربما نوى في اشتغاله في المباحات أو بعضها الاشتغال عن الشرور(٥٨).

وذكر رحمه الله أن مراعاة الأسباب بشروطها تفضي إلى مسبباتها ونتائجها بإذن ربها، فقال: "وإن الأسباب والمسببات من سلك طرقها على وجه كامل، أفضت به إلى نتائجها وثمراتها، ومن لم يسلكها أو سلكها على وجه ناقص لم يحصل له الثمرات التي رتبت على الأعمال شرعًا ولا قدرًا، وهذه توجب للعبد أن يجدّ ويجتهد في الأسباب الدينية والدنيوية النافعة مع استعانته بالله والثناء على ربه في تيسيرها وتيسير أسبابها وآلاتها وكل ما تتوقف عليه"(٥٩).

وهنا ينشأ سؤالان، الأول: هل تفعيل الأسباب يتعارض مع الإيمان بما قدّره الله وقضاه من الحوادث والنتائج؟

والجواب على ذلك يتلخص في أنّ اتباع الأسباب المأمور بها مطلب شرعي إيماني، وهو من حقيقة الإيمان ومقتضاه، كما أن التصديق بالقضاء من الإيمان، وما دام الأمران من الإيمان مطلوبين، فالإيمان لا يعارض بعضه بعضًا، بل يكمل بعضه بعضًا ويوافق بعضه بعضًا.

ومن هنا فالمؤمن لا بدّ له من الجمع بين الأمرين وتحقيق القدرين، فيؤمن بقضاء الله وقدره، ويعمل بالأسباب ويجد ويجتهد ويعتقد أن العمل بالأسباب المشروعة هو من القدر نفسه، فما قضاه الله وقدّره بعلمه السابق إنما رتبه وقدّره على الأسباب، فالأسباب هي من قدر الله تعالى، ولا يجوز إسقاط الأسباب وعدم مباشرتها بحجة الإيمان بالقضاء والقدر، كأن يترك الإنسان العمل وغيره من أسباب

٥٨- راجع: السعدي، تيسير اللطيف المنان، ص ٤١-٤٢.

٥٩- المرجع السابق، ص ١٨٣.

الرزق بحجة أنه إذا كان الله قد قدّر له رزقًا فلا بدّ أن يأتيه ويحصل له عمل أم لم يعمل. فهذا الاحتجاج ليس إلا من قبيل الوهم، وقد ردّه النبي صلى الله عليه وسلم فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن علي رضي الله عنه، قال: "كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس فجعل ينكت بمخصرته، ثم قال: ما منكم من أحد، ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار، وقد كتبت شقية أم سعيدة. فقال رجل يا رسول الله: أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟ فقال: من كان من أهل السعادة فسيصير إلى أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى أهل الشقاوة. اعملوا! فكل ميّسر: أما أهل السعادة فييّسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييّسرون لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾(٦٠).

قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه لهذا الحديث: "وفي هذا الحديث النهي عن ترك العمل والاتكال على ما سبق به القدر، بل تجب الأعمال والتكاليف التي ورد الشرع بها، وكل ميّسر لما خلق له لا يقدر على غيره"(٦١).

وأيضًا فإن الله تعالى أمر الناس بالدعاء والاستغفار وبغيرها من الأسباب المؤدية إلى مسبباتها، من تفريج الكروب وغفران الذنوب وتحصيل المقاصد، ومن قال أنا لا أدعو ولا أسأل الله تعالى، فلا أستغفره اعتمادًا على القدر كان مخطئًا، لأن الله تعالى جعل الدعاء ونحوه من العبادات أسبابًا تنال بها مغفرته ورحمته وهداه ونصره. وإذا قدّر الله للعبد خيرًا يناله بالدعاء أو بغيره من الأسباب لم يحصل ما قدره له بغير هذا السبب من الدعاء وغيره. وما قدّره الله وقضاه وعلمه من أحوال العباد وعواقبهم فإنما قدّره بأسباب تقع فيقع ما ارتبط بها من مسببات، فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب والله خالق الأسباب والمسببات(٦٢).

ولهذا فلا تعارض ولا تناقض ولا تضاد بين مراعاة الأسباب والاجتهاد في طلب المقاصد بما شرعه الله من أسبابها وبين الإيمان بالقدر، وأن ما قدّره الله تعالى وقضاه هو بحد ذاته مظهر من مظاهر الأسباب، ولله در عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ لامه بعضهم عندما رفض دخول الشام لما تفشى فيها

٦٠- سورة الليل، الآيات: ٥-١٠. ليراجع: زيدان، السنن الإلهية، ص ٢٩-٣٠.

٦١- صحيح مسلم بشرح النووي، دار إحياء التراث، بيروت، ط ٢، ١٣٩٢هـ، ج ١٦، ص ١٩٦.

٦٢- انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج ٨، ص ٦٩- ٧٠. زيدان، السنن الإلهية، ص ٣٠- ٣١.

طاعون عمواس فقالوا له: أتفرّ من قضاء الله وقدره؟! فقال رضي الله عنه: نفرّ من قضاء الله وقدره إلى قضاء الله وقدره(٦٣). فجمع بين الأخذ بالأسباب المشروعة في تحاشي المرض مع إيمانه بأن ذلك هو من حقيقة القضاء والقدر.

والسؤال الثاني هو: هل الأخذ بالأسباب يتعارض مع التوكل على الله؟

وهذه قضية أخرى ذات ارتباط بسنة الأخذ بالأسباب ومراعاتها، حيث يظن بعض من لم يفهموا معنى التوكل على الله والثقة بوعده ونصره ورزقه، أن الالتفات إلى الأسباب نقص في الإيمان ورقة في الدين ومناقض للتوكّل على الله والاعتماد عليه، بل قد يعدونه من باب الشرك بالله وفي ربوبيته، فتركوا الأعمال وركنوا إلى الدعة والكسل، وعطّلوا سنة الأسباب التي أمر الله بمراعاتها في كل الأحوال.

قال ابن تيمية رحمه الله في رده على هذا الفهم السقيم: "وهذا القول وأمثاله من قلة العلم بسنة الله في خلقه وأمره، فإن الله تعالى خلق المخلوقات بأسباب، وشرع للعباد أسبابًا ينالون بها مغفرته ورحمته وثوابه في الدنيا والآخرة. فمن ظن أنه بمجرد توكله مع تركه ما أمره الله به من الأسباب يحصل مطلوبه وأن المطالب لا تتوقف على الأسباب التي جعلها الله أسبابًا لها فهو غالط"(٦٤).

والحقيقة أن إسقاط الأسباب والإعراض عنها وعدم مباشرتها بحجة التوكل على الله تعالى يفضي بالإنسان إلى مخالفة الشرع، فإن الله تعالى قد أمر بالأخذ بالأسباب فمن أعرض عنها، فإنه يعرض عما أمره الله تعالى به. قال ابن القيم رحمه الله: "والله أمر بالقيام بالأسباب، فمن رفض ما أمره الله أن يقوم به فقد ضادّ الله في أمره، وكيف يحل لمسلم أن يرفض الأسباب كلها"(٦٥).

وليكن معلومًا أن تعاطي الأسباب لا ينافي التوكل، بل إن التوكل نفسه من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب ويندفع بها المكروه، فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل. وعلى هذا فالتوكل الشرعي الصحيح هو الاعتماد على الله والثقة بكفايته لعبده مع مباشرة العبد للأسباب المشروعة أو العادية التي جعلها الله مفضية إلى مسبباتها، ويدل على ذلك الحديث النبوي الشريف: "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا"(٦٦).

٦٣- أبو جعفر الطحاوي، شرح معاني الآثار، راجعه ورقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: يوسف المرعشلي، عالم الكتب، ط ١، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ج ٤، ص ٣٠٣، رقم: ٧٠٣٥.

٦٤- مجموع الفتاوى، ج ٨، ص ٥٢٩- ٥٣٠، وانظر: زيدان، السنن الإلهية، ص ٣١.

٦٥- مدارج السالكين، ج ٣، ص ٤٧٨.

٦٦- رواه الترمذي، باب في التوكل على الله، رقم: ٢٣٤٤، ج ٤، ص ١٥١.

ففي الحديث الشريف دلالة على مشروعية العمل للكسب والأخذ بالأسباب، فالطير لا يأتيها رزقها وهي في عشوشها بل بسعيها، فقد ألهمها تعالى السعي لتحصيل رزقها فتخرج جياعًا وترجع بطانًا ممتلئة البطون شبعًا. وهكذا ينبغي أن يكون الصادق في توكله يباشر الأسباب للحصول على مقصوده ومطلوبه، فعن أنس رضي الله عنه أن رجلًا قال يا رسول الله: "أعقلها ـ أي ناقته ـ وأتوكل؟ أو أطلقها وأتوكل؟ فقال: اعقلها وتوكل"(٦٧).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير. احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز"(٦٨).

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الحديث: "قوله صلى الله عليه وسلم: احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز" أمر بالتسبب المأمور به وهو الحرص على المنافع، وأمر مع ذلك بالتوكل وهو الاستعانة بالله، فمن اكتفى بأحدهما فقد عصى أحد الأمرين"(٦٩). ومع الأمر بتعاطي الأسباب ومباشرتها فإن الاعتماد القلبي على الله تعالى لا عليها فيكون حال قلبه بالله لا بها، وحال بدنه قيامه بها، وهذه هي حقيقة التوكل، فالمسلم يباشر الأسباب وثقته بالله واعتماده عليه. وأنه لا يقع تأثير البتة إلا بمشيئته تعالى(٧٠).

وهذا ما سيظهر جليًا من خلال القصص القرآنية التي هي محل الدراسة في هذا البحث، حيث سنجد أن القرآن الكريم يحرص دائمًا على تفعيل دور الإنسان، وأمره بمباشرة الأسباب المادية المشروعة في سبيل تحقيق مقاصده، بغضّ النظر عن مدى جدوى وفاعلية هذه الأسباب في تلك المواضع كما قد يتبادر للذهن أو الظن، ولكنها مشيئة الله وإرادته في أن يتحمل الإنسان دوره، ويقوم بواجبه ويبذل ما بوسعه، متوكلًا على الله تعالى، رب الأسباب وخالق المسببات والنتائج، قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾(٧١). فإن الله تعالى أمر أنبياءه ورسله أن يبلّغوا الناس وينذروهم ولا يلتفتوا إلى النتائج

٦٧- رواه الترمذي، السنن، تحقيق: أحمد شاكر وآخرون، أبواب صفة القيامة، مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط ٢، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م، ج ٤، ص ٦٦٨، رقم: ٢٥١٧.

٦٨- رواه مسلم، في كتاب القدر، باب ٣٤، وابن ماجة، حديث رقم ٧٩، في المقدمة.

٦٩- مجموع الفتاوى، ج ١، ص ٣٥٩.

٧٠- انظر: أضواء البيان، ج ٤، ص ٢٥٠- ٢٥١، زيدان، السنن الإلهية، ص ٣٢-٣٣.

٧١- سورة النور، الآية: ٥٤.

المطلوبة، أتحققت أم لم تتحقق؟ فما عليهم إلا أن يأخذوا بالأسباب ويقوموا بالواجب ثم الله تعالى يختار ما يشاء ويرضى. ولن يحاسب الله تعالى العبد يوم القيامة على النتائج ما دام أنه قد قام بدوره وبذل ما في طاقته ووسعه وباشر الأسباب التي أمر الله بها.

ثم إن مما يلفت النظر، ويدعو إلى التأمل والاعتبار، أن الأمر بمراعاة الأسباب ومباشرتها لم يقتصر على الإنسان فحسب وإنما شمل الحيوان أيضًا. فتأمل هذا الخطاب الإلهي والأمر الرباني ـ بل الأوامر ـ للنحل كيف يأمرها تعالى رب العالمين أن تنظم شؤون حياتها فيقول مخاطبًا لها: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾(٧٢). "اتخذي"، "كلي"، "اسلكي" كلها أفعال أمر تقتضي من المأمور أن يفعل ويتحرك، ويجدّ في طلب الرزق وتحقيق المقاصد، فإنها سنة إلهية في الكون كله.

المسألة الثالثة: الحكمة من تعاطي الأسباب:

إن كلّ ما أمر الله تعالى به أو نهى عنه، لا يخلو من حكمة بالغة وغاية نافعة وقصد حكيم، فإنه تعالى لا يأمر لأجل الأمر، كما أنه لا ينهى لذات النهي، فأوامره تبارك وتعالى ونواهيه لا مجال فيها للصدفة، ولا مدخل فيها للجهل أو العبث أو اللهو، حاشاه تبارك وتعالى عن ذلك، فقد تنزّه سبحانه عن هذا مما يقع في عالم البشر في كثير الأحوال، فأفعال الحكيم حكيمة، والله تعالى حكيم والحكيم لا يفعل إلا لمصلحة(٧٣)، فأهل السنة التابعون للصحابة يقرّون بالقدر وبالشرع وبالحكمة والتعليل في خلق الله وأمره، ويقرّون بما جعله الله سبحانه من الأسباب والمصالح التي جعلها رحمة للعباد. فكل ما خلقه الله سبحانه قد خلقه لحكمة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾(٧٤).

ومن هنا فإنه تعالى لما أمر بمراعاة الأسباب ودعا إلى مباشرتها ونهى عن تركها والتقصير في الالتفات إليها، فإنّما كان ذلك ـ بلا شك ـ لحكمة عظيمة، بل لحكم وغايات كثيرة قد تظهر وقد لا تظهر. فإن مشيئة الله تعالى قد اقتضت أن لا يحصل شيء إلا باتباع أسبابه التي جعلها الله تعالى أسبابًا له، وأن يبذل الإنسان جهده ويقوم بدوره في حدود استطاعته في سبيل تحقيق مقاصده ونيل مطالبه. فأمْر الله تعالى بمعاهدة الأسباب، إنما يتضمن حكمًا إيمانية وتربوية ونفسية وسلوكية وتعليمية، تشعر الإنسان بدوره

٧٢- سورة النحل، الآيتان: ٦٨-٦٩.

٧٣- الرازي، المحصول، ج ٥، ص ٣٨، نقلًا عن: محمد العروسي، المسائل المشتركة، ص ٢٧٧.

٧٤- سورة النمل، الآية: ٨٨، انظر: المسائل المشتركة، ص ٢٨٠.

ومسؤوليته، وأنه ليس قطعة جمادية مسيّرة في هذا الكون، فيدفعه بذلك نحو الجد والعمل والنشاط والبذل، ويبتعد به عن اليأس والتّسأم والقنوط، والتواكل والاستسلام للمصير المحتوم، ويخلصه من التخاذل والكسل والانهزام والضعف والركون والرضى بالفقر والعوز، ويحفظه من الانطواء على النفس والخوف من مواجهة الأمور والعجز عن دفع الأخطار، ويورثه الأمل والاستبشار ويمده بالعزيمة والصبر والشجاعة والإقدام، ويعلّمه طرق الكسب وفنون العمل، فيسهم إسهامًا حقيقيًا في عمارة الأرض التي أمره خالقه جل وعلا بعمارتها واستخلفه فيها. ومن هنا: "فإن الأمة المستضعفة ولو بلغت من الضعف ما بلغت لا ينبغي أن يستولي عليها الكسل عن السعي في حقوقها ولا اليأس من الارتقاء إلى أعلى الأمور، خصوصًا إذا كانوا مظلومين"(٧٥). "وأن العبد وإن عرف أن القضاء والقدر حق، وأن وعد الله نافذ لا بد منه، فإنه لا يهمل فعل الأسباب التي تنفع، فإن الأسباب والسعي فيها من قدر الله، فإن الله تعالى قد وعد أم موسى أن يرده عليها، ومع ذلك لما التقطه آل فرعون سعت بالأسباب وأرسلت أخته لتقصه وتعمل الأسباب المناسبة لتلك الحال، وقد أقرها الله تعالى على ذلك"(٧٦).

ولو لم يكن في الأمر بمراعاة الأسباب من الحكمة إلا إظهار مدى امتثال الإنسان لأمر الله، والاستجابة له، ولزوم طاعته والخضوع لأمره ونهيه والاستسلام لمراده والانقياد لمشيئته، وكل ما يكشف عن عبودية الإنسان لخالقه جل وعلا ـ لكان ذلك كافيًا أن يأمر الله تعالى بمراعاة الأسباب وضرورة مباشرتها حيث إن: "المؤمن يتعاطى الأسباب امتثالًا لأمر ربه مع علمه ويقينه أنه لا يقع في ملكه سبحانه إلا ما يشاؤه ويريده"(٧٧). فكيف وفي ذلك ما فيه من الحكم والمقاصد والغايات التي تعود بالنفع على الإنسان نفسه، فتبارك الله العليم الحكيم(٧٨).

ومن الحكم أنه تعالى يأمر بمراعاة الأسباب فيكشف من خلال ذلك عن وجوه العلم وطرق المعرفة ووسائل النجاة وأساليب الخلاص، وكيفية دفع الضرر واتقاء الأذى والخطر وغير ذلك، مما كان الإنسان يحتاج إليه في شؤون حياته(٧٩).

٧٥- عبد الرحمن بن ناصر السعدي، قصص الأنبياء، مكتبة أضواء السلف، الرياض، ط ١، ١٩٩٥م، ص ١٠٤- ١٠٥.

٧٦- راجع: المرجع السابق، ص ١٠٥.

٧٧- محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان، ج ٤، ص ٢٥٠- ٢٥٢، محمد سعيد طنطاوي، القصة في القرآن الكريم، دار المعارف، ط ١، ١٩٩٥م، ص ٧٤٤، منى داود، منهج الدعوة، ص ٣٠- ٣١.

٧٨- انظر: محمد العروسي، المسائل المشتركة، ص ٢٨٥.

٧٩- راجع: أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي، تأويلات أهل السنة، تحقيق: فاطمة يوسف الخمي، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط ١، ٢٠٠٤م، ج ٣، ص ٢١٧.

هذا من حيث الأمر بمباشرة الأسباب على وجه العموم، وأما إذا نظرنا في القصة القرآنية وتأملنا مواطن الأمر فيها بمباشرة الأسباب، فسنجد أن لكل موضع حكمة بليغة وغاية عظيمة، كما سيظهر ذلك جليًا إن شاء الله تعالى من خلال المطلب الثاني.

ويحسن هنا أن نذكر بعض النماذج وما فيها من الحكم والمقاصد الإلهية الدالة على الحكمة من أمر الله بمراعاة الأسباب ومباشرتها من قبل الإنسان حيثما وجد إلى ذلك سبيلًا.

١- قال سيد قطب رحمه الله ضمن كلامه عن قصة نوح عليه السلام وأمره بصنع الفلك وحمل أصناف المخلوقات: "وقد شاء الله أن يصنع نوح الفلك بيده لأنه لا بدّ للإنسان من الأخذ بالأسباب والوسائل وبذل آخر ما في طوقه، ليستحق المدد من الله ربه. فالمدد لا يأتي للقاعدين المستريحين المسترخين، الذين ينتظرون ولا يزيدون شيئًا على الانتظار! ونوح عليه السلام قدّر له أن يكون أبا البشر الثاني، فدفع به إلى الأخذ بالأسباب مع رعاية الله له وتعليمه صناعة الفلك، ليتم أمر الله وتتحقق مشيئته في هذا الطريق"(٨٠).

٢- وقال الشيخ عبد الرحمن الدوسري رحمه الله عند تفسيره وبيانه لأمر الله تعالى بني إسرائيل بذبح البقرة وضرب الميت بجزء منها، ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٨١) قال: "لقد جعلها الله وسيلة وهو سبحانه قادر على إحيائه بغير وسيلة، ولكن اقتضت حكمته أن لا يحيا إلا بعد جهد وامتحان وثمن باهظ كادوا بسببه أن لا يفعلوا... وجعلهم يتولون أمر الضرب هم بأنفسهم ويباشرونه دون موسى عليه السلام؛ لأن الله يعرف دقائق أنفسهم الخبيثة، وأنه لو ضربه موسى ببعضها من دونهم لرموه بالسحر والشعوذة أو زعموا أن هذا من خصائصه، كاليد والعصا والصخرة، ولكن جاء قدر الله وأمره بوسيلة، هم يباشرونها بأنفسهم لينقطعوا أمام حجة الله البالغة"(٨٢).

٣- وفي تعليقه على أمر الله لموسى عليه السلام بضرب البحر ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾(٨٣)، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ

٨٠- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، د.ت، ج ٤، ص ٢٤٦٥.

٨١- سورة البقرة، الآية: ٧٣.

٨٢- الشيخ عبد الرحمن بن محمد الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم، مكتبة دار الأرقم، الكويت، ط ١، ١٩٨١م، ج ١، ص ١٨٠- ١٨١.

٨٣- سورة البقرة، الآية: ٦٠.

أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗا﴾(٨٤)، يقول الشيخ عبد الرحمن الدوسري رحمه الله: "ولا يمتنع على قدرة الله تعالى أن ينفجر الماء من الحجر بدون ضرب، لكن الله تعالى اختار لموسى عليه السلام أن يضرب الحجر بعصاه زيادة كرامة له بين قومه"(٨٥).

وهكذا يتضح لنا أن الأمر بالأسباب من خلال القصة القرآنية إنما جاء حافظًا للإنسان بدفعه إلى القيام بدوره وبذل ما في وسعه في سبيل تحقيق مقاصده، حتى لا يركن إلى مجريات الأقدار، وإن كان كل شيء في هذا الكون بقضاء وقدر، وفي ذلك ما فيه من الغايات الحكيمة.

المطلب الثاني: الدعوة لمراعاة الأسباب في القصص القرآنية: دراسة تطبيقية:

لما كانت الدعوة إلى الأخذ بالأسباب غاية من غايات القرآن الكريم التي يسعى القرآن إلى تحقيقها في حياة الإنسان، وكانت القصة أسلوبًا من أساليب التعليم والتربية والإرشاد، بل لعلها من أفضل الأساليب والطرق التعليمية، نجد أن القرآن الكريم لم يغب عنه توظيف القصة لتحقيق هذا المطلب الإيماني في حياة الناس(٨٦)، والقصة ـ بحق ـ وسيلة نافعة من الوسائل التعليمية والتربوية، ولطالما كان لها تأثير كبير في التربية والتعليم والهداية لما تتمتع به من انطباع عميق على الإحساس والشعور القلبي والنفسي عند الإنسان. ومن المعلوم أنه قد تنبهت لهذا الدور المؤسسات التربوية والتعليمية المعاصرة ودعت إلى تفعيل دور القصة في تحقيق الأهداف العامة والخاصة.

وفي هذا المطلب سأبين بعض المواقف التي أمر الله تعالى فيها عن طريق القصة بمباشرة الأسباب وبذل الجهد والقيام بعمل ما يستطيع الإنسان عمله ذلك لأن الله تعالى لم يكن يتولى بنفسه ـ مع أنه هو القادر على كل شيء ـ إجراء الأحداث وإيقاع المقاصد مباشرة منه سبحانه وتعالى، وإنما تجده جل وعلا يأمر الشخص صاحب القصة ـ نبيًا كان أو غير نبي ـ أن يفعل، وأن يعمل شيئًا ولو كان يسيرًا، فلا يبقى واقفًا ينتظر تحقق الأمور بلا مبادرة أو جهد منه. ونجد أن المخاطبين كانوا يستجيبون للأمر والطلب فلا يترددون ولا يعتذرون بضعف القدرة وقلة الحيلة، أو بعدم جدوى الفعل أمام المهمة الصعبة الكبيرة، وإنما كانوا يبادرون فيفعلون ما يؤمرون به من اختيار الأسباب.

وقد تضمن هذا المطلب ثماني مسائل، يظهر منها أن القرآن الكريم لم يترك فرصة إلا دعا بها الإنسان إلى أن يقوم بدوره ويبذل جهده في سبيل تحقيق مقاصده.

٨٤- سورة الأعراف، الآية: ١٦٠.

٨٥- الدوسري، صفوة الآثار والمفاهيم، ج ١، ص ١٨٠- ١٨١

٨٦- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠م، ج ١، ص ٦٥.

المسألة الأولى: توجيه الأمر الإلهي لسيدنا نوح عليه السلام بصنع السفينة وحمل أزواج الحيوانات كوسيلة للنجاة وبقاء النوع الإنساني والحيواني:

بعد أن استنفد نوح عليه السلام كل الوسائل والأساليب في دعوة قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له وإقامة الأُلوهية لله رب العالمين لا شريك له وترك عبادة الأصنام والأوثان، وسئم منهم ويئس من استجابتهم لدعوة الخير والهداية، وأخبره الله تعالى أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، دعا نوح عليه السلام عليهم ـ ودعوة الأنبياء مستجابة ـ وتوجّه إلى الله تعالى سائلا أن يستأصلهم ولا يبقي منهم أحدًا.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾(٨٧).

فاستجاب الله تعالى دعاءه، وأمره أن يتهيأ ويعدّ العدة ويأخذ بأسباب النجاة المادية له ولمن آمن معه، ثم ينتظر نزول العذاب بالقوم الكافرين، فأمره تعالى أن يصنع سفينة ويعدّها على المستوى المطلوب استعدادًا لمواجهة الأخطار وطلبًا للنجاة من العذاب الذي سينزله الله بالجاحدين والمنكرين. فلم يتردد ولم يتوان لحظة فبادر مستجيبًا لأمر الله تعالى، فأكبّ على صناعة السفينة من الألواح والدسر، ولا يصده عن ذلك استهزاء قومه وسخريتهم منه ومن سفينته التي ربما لم يألفوا مثل هذا الصنيع من قبل(٨٨).

فأمر الله تعالى لسيدنا نوح بصناعة السفينة كوسيلة للنجاة(٨٩)، واستجابته لأمر الله تعالى، هل هذا إلا دعوة من القرآن للإنسان أن يأخذ بالأسباب؟ وأن يقوم بدوره ويقدم ما بوسعه وطاقته؟ وقد كان الله جل وعلا ـ بقدرته وحكمته ـ قادرًا على أن ينجي من يريد نجاتهم ويحفظهم بعنايته ورعايته فلا ينالهم أذى ولا غرق، من غير سفينة ولا قارب، ولكن بما أن الله سبحانه وتعالى لم يشأ بحكمته الأزلية أن يجري كل أقداره ومراداته بتدخله المباشر في حركة التاريخ، استقلالًا في منأى عن دور الإنسان، أراد من الإنسان أن يجدّ ويجتهد ويباشر بنفسه الأسباب التي خلقها الله تعالى، ورتب عليها مسبباتها ونتائجها.

٨٧- سورة نوح، الآية: ٢٦- ٢٧.

٨٨- محمد بن علي بن محمد الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار الفكر، ١٩٨١م، ج ٢، ص ٤٩٧.

٨٩- محمد بن عمر فخر الدين الرازي، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٩٨١م، ج ١٧، ص٢٢٢.

وهذا ما لم يغب عن سيدنا نوح عليه السلام فأسرع إلى الأخذ بالسبب وقام بدوره المطلوب فصنع السفينة وأعدها لليوم الموعود. قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾(٩٠).

وثمة مظهر آخر من مظاهر دعوة القرآن إلى تفعيل دور الإنسان والأخذ بالأسباب وهو يتمثل في أمر الله تعالى لنوح عليه السلام ـ بعد أن أحكم السفينة وهيأها للركوب ـ أن يحمل فيها من كل أصناف الحيوان والطير زوجين اثنين، ولا يكتفي بحمل من آمن معه من المؤمنين إذا هبت العاصفة وأمطرت السماء وفار التنور، فكان ذلك توجيها إليها لاختيار مادي ووسيلة لحفظ بقاء النوع الإنساني والحيواني معًا واستمرار الحياة وتكاثر المخلوقات(٩١).

فبهذا يحضّ القرآن الإنسان على أن يفعل كل ما هو مقدور ومتاح ويباشر من الأسباب والوسائل المادية المشروعة ما يحقق له مقاصده، وقد كان بمقدور الله جل وعلا أن يحفظ نوحًا ـ وهو الذي إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون ـ ولكنه تعالى وتبارك الحكيم العليم لا يريد للإنسان أن يشعر بالإحباط والعجز وينتظر المدد الإلهي المباشر، ولكنه تبارك وتعالى يريد للإنسان أن يشعر بدوره في صنع الأحداث وتحقيق المقاصد وقضاء الحاجات فيباشر بنفسه ما يتاح له من الأسباب. قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٩٢).

المسألة الثانية: أمر الله تعالى لسيدنا إبراهيم بنداء الناس للحج بعد اكتمال بناء البيت الحرام:

قصة بناء سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام للبيت الحرام بمكة المكرمة بأمر الله تعالى لهما، ليكون محجًا للناس ومكانًا للعبادة والتقرب إلى الله تعالى، واقعة معلومة قصها القرآن في سورة البقرة وسورة الحج وما يعنيني هنا هو أنه بعد أن فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت وهيأه على المستوى المطلوب، أمره الله تبارك وتعالى أن يؤذن في الناس بالحج فيدعوهم إلى هذا البيت الكريم، فقد أمره أن

٩٠- سورة هود، الآيات: ٣٦- ٣٩.

٩١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، دار المعرفة، بيروت، ج ١٢، ص ٧٦.

٩٢- سورة هود، الآيتان: ٤٠- ٤١.

ينادي بصوته لأن وسائل الاتصال والإعلام يومها لا تعرف إلا النداء بالصوت كوسيلة سريعة مادية للدعوة والإعلام والإبلاغ والإخبار. ومعلوم أن مدى صوت الإنسان محدود مهما ارتفع بالحد الطبيعي، فماذا عساه أن يبلغ صوت إبراهيم عليه السلام مهما كان عاليًا جهوريًا وندِيًا. ولكن مع كل هذه المعوقات، نجد أن الله الحكيم العليم يأمر سيدنا إبراهيم أن ينادي الناس ويدعوهم إلى الحج. فقال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾(٩٣).

ولعل سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام ـ كما ذكر المفسرون(٩٤) ـ أصابته حيرة ودهشة لهذا الأمر الرباني بعض الوقت، فقال: يا رب، كيف أبلغ الناس وصوتي لا ينفذهم؟! فقال الله: ناد وعلينا البلاغ. وكأنه ربّما غاب عنه مبدأ الأخذ بالأسباب المادية المشروعة التي تقضى بها الحاجات وتنال بها المقاصد والغايات، ولكنه عليه السلام لم يلبث أن استجاب لأمر، فيعلو جبل أبي قبيس أو غيره ويجعل أصبعيه في أذنيه وينادي: أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجوا، وذلك كما يقول ابن عاشور: "أقصى استطاعته في امتثال الأمر بالتأذين"(٩٥). وهكذا نجد القرآن، وهو يعرض القصة وأحداثها، حريصًا على تفعيل دور الإنسان وتحميله قدرًا من المسؤولية، فيأمره بمباشرة الأسباب من أجل تحقيق المقاصد والحاجات، ولا يعفيه من بذل الوسع والاستطاعة.

وثمة موقف آخر يأمر فيه الله تعالى سيدنا إبراهيم بمباشرة الأسباب ولا يكله إلى مجرد التوكل أو التدخل الرباني المباشر في قضاء مقاصده وإجابة سؤله. ففي مشهد طلب سيدنا إبراهيم من الله تعالى أن يريه كيفية إحياء الموتى، لم يجبه تبارك وتعالى حتى يريه ذلك بصورة مباشرة بالتدخل الرباني ومحض القدرة الإلهية ـ وهو قادر جل وعلا أن يري خليله إبراهيم ويطلعه على طريقة الإحياء ـ ولكنه تبارك وتعالى يأمره أن يقوم بأفعال معينة، وأن يباشر أسبابًا عملية بنفسه، فيرى كيف يحيي الله الموتى. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٩٦).

٩٣- سورة الحج، الآية: ٢٧.

٩٤- الحافظ عماد الدين إسماعيل القرشي ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٦٩م، ج٣، ص ٢١٦. وأضواء البيان، ج ٥، ص ٦٦.

٩٥- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٧، ص ١٧٦.

٩٦- سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

انظر إلى الأوامر الفعلية التي وجّهها الله تعالى لسيدنا إبراهيم هنا: "خذ"، "فصرهن"، "اجعل"، "ادعهن" إنه تعالى لم يجب له طلبه من غير أن يقوم هو بدور ملموس ويباشر أسبابًا ويبذل جهدًا. إنه منهج القرآن في الدعوة إلى تفعيل دور الإنسان وتكليفه بمباشرة الأسباب حتى يصل إلى ما يريد وينال ما يسعى إليه، بعيدًا عن الاعتماد على الغير أو الكسل أو الإهمال. والإنسان عندما ينال مطلبه بعد سعي وكلفة وجهد وبذل وعناء ـ يشعر بنشوة ولذة وسرور، بخلاف حاله حينما تقضى له الحاجات وتتحقق له الرغبات من غير عناء ولا مشقة.

المسألة الثالثة: أمر الله تعالى لسيدنا أيوب عليه السلام أن يضرب الأرض برجله لاستخراج الماء:

تحدث القرآن الكريم عن سيدنا أيوب عليه السلام في مواطن عديدة بأسلوب مختصر وإشارات سريعة دارت حول خبر ابتلاء الله تعالى له وامتحانه بما أصابه من الضرر والمرض وفقد المال والولد وجفاء الناس له، ومع كل ذلك كان عليه السلام صابرًا محتسبًا ذاكرًا لله تعالى، منيبًا إليه غير جازع ولا متسخط ولا متبرم مما نزل به فكان راضيًا بقضاء الله وقدره، شأنه في ذلك شأن إخوانه من الأنبياء والرسل والصالحين من عباد الله المخبتين الطائعين الصابرين.

ولما طال عهد الابتلاء بأيوب عليه السلام، توجه إلى الله تعالى داعيًا إياه، متوسلًا إليه أن يكشف عنه ما نزل به من الضرّ والبلاء، والسّنّة الربانية تقتضي أن يتوجه الإنسان في كل أحواله إلى الله تعالى فيدعوه. قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾(٩٧). فاستجاب الله له دعاءه وكشف عنه ما أصابه وردّه إلى أفضل حال مما كان عليه قبل المرض والبلاء.

ولكن كيف استجاب الله له وكشف عنه الضر؟ وكيف حصل له الشفاء؟ هل كان ذلك بلمسة ربانية مباشرة، وهو جل وعلا قادر على أن يعافيه كيف يشاء؟! لم يشأ جل وعلا أن يجيب نبيه أيوب من غير أن يقوم أيوب عليه السلام بفعل ويباشر أسباب الدواء والشفاء بنفسه، وهو منهج القرآن في كثير من المواضع، يفسح المجال أمام الإنسان أن يقوم بدوره وأن يباشر فعلًا ويبذل طاقته وقدرته، فالله تعالى يجري أقداره في الكون بواسطة الأسباب والوسائل المشروعة ـ إلا إذا أراد أمرا غير ذلك ـ فإنه تعالى يأمر الإنسان في جميع أحواله وأوضاعه أن يأخذ بالأسباب وأن لا يتّكل على مطلق قدرة الله. فهذا أيوب عليه السلام، وهو على ما هو عليه من الضعف والمرض، عندما توجه إلى ربه طالبًا

٩٧- سورة الأنبياء، الآيتان: ٨٣- ٨٤.

منه أن يتدخل فيكشف عنه ما نزل به من الضر، يأمره الله الحكيم العليم الرحمن الرحيم القدير أن يركض (يضرب) الأرض برجله ليخرج منها الماء فيغتسل به ويشرب منه فيذهب عنه ما كان يعانيه. وماذا عسى أن تجدي نفعًا ضربة رِجْلِ شخصٍ مريض ضعيف نحيل البدن خائر القوى، بل ماذا تفعل ضربة رِجْلِ سويٍ صحيح البدن معافى؟ ولكنها مشيئة الله وإرادته وحكمته في أن يتعود الإنسان مباشرة الأسباب المتاحة ويتحمل دوره، ويبذل ما بوسعه واستطاعته في جميع أحواله، حتى لا يشعر بالعجز والقهر والتسيير والجبر، وبل ليشعر بالإرادة الحرة والقدرة الفاعلة وممارسة المسؤولية، فلا يفرط في الأخذ بالأسباب المتاحة.

وقد كان التوقع والمأمول ـ وحال أيوب على ما هي عليه ـ أن يستجيب الله له فيعافيه بمجرد الدعاء والتضرع بغير سبب ولا وسيلة مادية منه، ولكن الله تعالى لم يشأ ذلك تفعيلًا لدور الإنسان ببذل الطاقة والوسع ليصل على آماله ومقاصده. قال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ۝٤١ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ۝٤٢ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾(٩٨). وبالرغم من الحال التي كان عليها أيوب عليه السلام، تلقى الأمر الإلهي فبادر من غير تردد ففعل ما أمره الله به، فضرب الأرض برجله استجابة لأمر الله وتسليمًا لطلبه متوكلًا عليه، فنبعت عين ماء باردة فتداوى بمائها، وذهب ما به من المرض والأذى(٩٩).

المسألة الرابعة: مظاهر التفعيل في قصة سيدنا موسى عليه السلام:

أولًا: المظهر الأول والثاني: الأمر بإرضاعه وإعداد التابوت ووضعه فيه قبل إلقائه في البحر:

ولد سيدنا موسى عليه السلام في أجواء نفسية عصيبة، فكان مهددًا بالموت منذ اللحظة الأولى التي سيخرج فيها إلى الحياة من رحم أمه، تنفيذًا للخطة التي وضعها فرعون مصر للخلاص من كل المواليد الذكور لبني إسرائيل الذين سيولدون في ذاك العالم الذي ولد فيه موسى، لرؤية رآها فرعون كان تأويلها أنه سيولد في هذا العام مولود تكون نهاية فرعون وذهاب ملكه على يديه، فكان الرأي أن يتخلص من كل المواليد الذكور، وكانت أم موسى تنتظر مولودها ولعلها لم تكن تعلم أذكر هو أم أنثى، وربما كانت تتمنى أن تكون مولودها أنثى حتى لا تفجع بفقد الولد فكانت المفاجأة وجاء المولود ذكرًا، وهنا بدأت

٩٨- سورة ص، الآيات: ٤١- ٤٣.

٩٩- وهبة الزحيلي، **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط ١، ١٩٩١م، ج ٢٣، ص٢٠٦.

المخاوف، وهي كغيرها من الأمهات شديدة الحرص على حياة وليدها، فماذا عساها أن تفعل حتى تكتم خبر ولادته وتخفي أثره، وعيون فرعون ومخابراته يستقصون الأخبار ويتتبعون حالات الولادة في بني إسرائيل؟ في هذه الأزمة النفسية التي تمّر بها موسى عليه السلام يأتيها الوحي الرباني ـ بغضّ النظر عن نوع هذا الوحي ـ مطمئنًا لها ومثبّتًا لفؤادها، ومبشرا لها ومهدئا لفزعها وخوفها وحزنها، فيأمرها الله تعالى بأن ترضعه كما ترضع الأمهات أولادهن، فلا تغفل عن ذلك لشدة هول الموقف وأن لا تيأس من حياة وليدها فتنسى وظيفة الأمومة أو تظن أن الرضاعة ـ والحالة هذه ـ عبث لا جدوى لها، بينما أن الرضاعة قد جعلها الله تعالى سببًا للحياة والطفل أحوج ما يكون لها في هذه المرحلة، وأنه لا بدّ من الأخذ بكل الأسباب المتاحة والممكنة مع التوكل على الله والثقة بوعده. ويبدو أنها قد استجابت لأمر الله أولًا ثم لنداء الفطرة ثانيًا، فأرضعته ودثرته كما تفعل الأمهات(١٠٠). يقول ابن عاشور: "وإنما أمرها الله بإرضاعه لتقوى بنيته بلبان أمه فإنه أسعد بالطفل في أول عمره من لبان غيرها، وليكون له من الرضاعة الأخيرة قبل إلقائه في اليم قوت يشدّ بنيته فيما بين قذفه في اليم وبين التقاط آل فرعون إياه وإيصاله إلى بيت فرعون وابتغاء المراضع ودلالة أخته إياهم على أمه إلى أن أحضرت لإرضاعه فأرجع إليها بعد أن فارقها بعض يوم"(١٠١).

وهذا كله من باب مراعاة الأسباب في تحقيق المقاصد ولكن مع التوكل على الله والثقة بوعده في جميع الأحوال والظروف. ثم أمرها الله تعالى أن إذا أحست بالخطر وشعرت بالخوف على وليدها من فرعون وحزبه، أن تضعه في تابوت، إمعانًا في مراعاة الأسباب واتخاذ الوسائل والتدابير ثم تلقيه في البحر، ثم يتولى الله تعالى أمره ويكلأه بعنايته ورعايته حتى يعود إلى حضن أمه. وتستجيب أم موسى لأمر الله، فتصنع التابوت وتعدّه لساعة الخطر وتضع فيه وليدها ثم تلقيه في البحر، وماذا عساها أن تفعل كل هذه الإجراءات أمام المخاطر: خطر فرعون من جهة، وخطر البحر وهوامه من جهة أخرى، ولكنها هي السنة الإلهية في أن يبذل الإنسان كل الأسباب، ويستعمل كل الوسائل المشروعة التي جعلها الله طريقًا إلى تحقيق المقاصد، وقد تحقق لأم موسى ما وعدها الله به من حفظ ولدها وعودته إليها إذ فعلت كل ما أمرها الله تعالى به فأقرّ عينها وأذهب خوفها وحزنها. فهذا مظهر من مظاهر تفعيل القرآن لدور الإنسان في مباشرة الأسباب وعدم التخاذل أو اليأس أو الكسل أو التفريط، من خلال القصة القرآنية. قال تعالى: ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ

١٠٠- انظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، دار القلم، دمشق، ط ١ ، ١٩٩٨م، ج ٢، ص ٢٨٦.

١٠١- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٠، ص ١٦.

إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾(١٠٢). وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ٣٧ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ٣٨ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾(١٠٣).

ثانياً: المظهر الثالث: الأمر بإلقاء العصا في مواجهة السحرة:

وتمر الأيام سريعة، وينشأ موسى عليه السلام في بلاط فرعون، تحفّه العناية الإلهية، **وما كان يدري أنه سيكون رسولًا** إلى فرعون **وملئه، حتى بعثه الله وكلّفه وأخاه هارون بحمل الرسالة وتبليغ الدعوة. وهنا** يبدأ الصراع بين الحق والباطل، بين موسى وفرعون، ويبدأ فرعون يشعر بخطر موسى على ملكه. ويرفض فرعون الدعوة، ويقف من موسى موقف الرفض والعداوة والتحدي، ويتهمه بالجنون والسحر والشعوذة، ويجمع **عليه السحرة والعرّافين** ويعدهم ويمنّيهم، **ويتهدد موسى ويتوعده، ويثبت موسى أمام** التحدي ويصدع بما أمره الله به، وإن كان ـ كما يشير القرآن الكريم ـ قد اعتراه شيء من الخوف الفطري **حينما** شاهد أفاعيل السحر والسحرة ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ﴾(١٠٤). وفي الحال يُطمئنه الله تعالى **ويثبّت فؤاده،** ﴿قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾(١٠٥). **ولكن القرآن لا يقف عند حدِّ الطمأنة والكفالة لموسى بالغلبة** والنصر من غير أن يقوم **موسى بدوره** ويباشر من الأسباب التي بين يديه. فيأمره تعالى **بإلقاء العصا أمام كل الجنود السحرية الفرعونية، وماذا عسى أن تفعل العصا** الملقاة في مواجهة أسراب من **الأفاعي** والحيات التي تخيلها **بفعل السحر والسحرة، ولكنه** لا يلبث أن يستجيب لأمر الله **ويلقي عصاه، والعصا هي السبب المادي القريب والوسيلة التي يستعملها** الإنسان في صد الهوام ودفع الصائل. قال تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ﴾(١٠٦)، **وقال تعالى:** ﴿فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ﴾(١٠٧). وقال تعالى: ﴿وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ﴾(١٠٨).

١٠٢- سورة القصص، الآية: ٧.

١٠٣- سورة طه، الآيات: ٣٧ – ٣٩.

١٠٤- سورة طه، الآية: ٦٧.

١٠٥- سورة طه، الآية: ٦٨.

١٠٦- سورة الأعراف، الآية: ١١٧.

١٠٧- سورة الشعراء، الآية: ٤٥.

١٠٨- سورة طه، الآية: ٦٩.

والأمر باستعمال العصا في مواجهة الخطر سبب مشروع ومعقول وأمر مطلوب، **حرص القرآن** الكريم على أن يباشره موسى ولا ييأس، **فلا يظلّ ينتظر ماذا ستفعل** العناية الإلهية والقدرة الربانية، **وقد** كان الله تعالى قادرًا على أن يحقق لموسى ما يريد وينجيه من فرعون وسحرته وينصره عليهم من غير أن يتدخل موسى بعمل شيء، ولكن القرآن الكريم يحرص على تفعيل دور الإنسان في تحقيق المطالب والمقاصد المشروعة وهو مظهر **من مظاهر** السنة الإلهية في الأمور كلها.

ثالثًا: المظهر الرابع: أمره أن يسري ليلًا بمن آمن معه متخفيًا:

ويتأزم الموقف بين موسى ومن **آمن معه** من السحرة وغيرهم وبين فرعون وملئه، وبالرغم من **كل البيّنات والآيات والمعجزات** المؤيدة لموسى عليه السلام، يصرّ فرعون على طغيانه وبغيه، **فيتهدد ويتوعّد** ويعاند فيدعي الألوهية والربوبية، ثم يعلن عن عودته إلى خطته السابقة في إبادة الذكور من بني إسرائيل واستحياء البنات كما فعل عند ولادة موسى من قبل(١٠٩). ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾(١١٠)، **وتبدأ أيضًا** ملاحقته ومطاردته للمؤمنين بتتبعهم **إبادة وتقتيلًا، ويتوجه** موسى عليه السلام إلى أصحابه المؤمنين يعظهم ويأمرهم بالصبر والاستعانة بالله والتوكل عليه كأسباب معنوية لمواجهة البلاء كما قال صلى الله عليه وسلم في مرحلة من مراحل دعوته لأصحابه: "صبرًا **آل ياسر! فإن موعدكم الجنة**"(١١١). قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(١١٢).

ولما وصلت الأمور إلى **أقسى** حال من الشدة والضيق والخطر المحدق بموسى وبالمؤمنين معه، جاء الإذن الرباني والوحي الإلهي لموسى أن يسري بقومه من مصر **ليلًا متخفيًا عن الأنظار والعيون،** فالليل مظنة الستر والنجاة والحماية من جهة، **وهو أبرد وألطف وأقطع** للسير من الأرض من السير نهارًا من جهة أخرى، وإن كان السير **ليلًا** لا يخلو من المعاناة **أيضًا** بسبب الظلام والهوام. قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾(١١٣).

١٠٩- صلاح عبد الفتاح الخالدي، **مع قصص السابقين في القرآن**، دار القلم، دمشق، ط ١، ١٩٨٩م، ج ٤، ص ٨.

١١٠- سورة الأعراف، الآية: ١٢٧.

١١١- محمد بن إسحاق، **سيرة ابن إسحاق** (كتاب السير والمغازي)، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ص ١٩٢.

١١٢- سورة الأعراف، الآية: ١٢٨.

١١٣- سورة الشعراء، الآيات: ٥٢- ٥٤.

وهنا يتجلى الدرس القرآني في لفت الأنظار نحو وجوب مراعاة الأخذ بالأسباب، واتخاذ الاحتياطات والوسائل المادية المقدورة والمشروعة، وهي دعوة صريحة من القرآن في تفعيل دور الإنسان وقيامه بواجبه من أجل تحقيق مقاصده ومطالبه. ويستجيب سيدنا موسى لربّه ويخرج بأهله ومن آمن معه بقطع من الليل متسرّا متسلّلا، ويكتب الله تعالى لهم النجاة من فرعون وجنوده.

رابعًا: المظهر الخامس: أمر الله تعالى موسى عليه السلام بضرب البحر بالعصا عند ملاحقة فرعون له:

سرى موسى عليه السلام بمن آمن معه ليلًا كما أمره الله تعالى وهداه إلى سبب النجاة، وخرج فرعون يتتبعه بجيشه بحثًا عنه حتى لحق بهم وقد أشرفوا على البحر نحو الأرض المقدسة. وهنا يتأزم الموقف مرة أخرى بالمؤمنين، ويشتد خوفهم لما رأوا فرعون وجيشه، وقد بلغت القلوب الحناجر وظنوا بالله الظنونا، فأيقنوا بالهلاك حتى قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾(١١٤). ولكن موسى عليه السلام كان على يقين من ربه فطمأنهم ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾(١١٥).

نعم إن قوم موسى قد شعروا بالخطر وخافوا على أنفسهم، ولا غرابة، فالبحر من أمامهم، وجيش فرعون من خلفهم، وهم قلة، فكل الحسابات المادية تشير إلى أنهم هالكون لا محالة ولم يبق لهم أمل في النجاة(١١٦). فماذا عساهم فاعلين؟! وهنا يتدخل الوحي الرباني ويصدر الأمر الإلهي لموسى أن يضرب البحر بعصاه ويشق طريقًا يسلكه، وما الذي يمكن أن تحدثه عصاه أو تفعله عند ضرب البحر؟ فهو فعل، في ظاهر الأمر، أشبه ما يكون بفعل العابث اليائس، ولكنه فعل يحمل دلالة على المنهج القرآني في أن يتجاوب الإنسان مع الأحداث، ويمدّ يده بقدر طاقته واستطاعته في أن ينال أو يصل إلى مراده، ثم يترك النتائج إلى الله العليم الحكيم القدير. وموسى عليه السلام لم يتردد في الاستجابة لأمر الله تعالى، ففي عصاه آيات ظهر بعضها من قبل، فليستعملها كما يأمره ربه وقد فعل ـ وعلى الإنسان أن يفعل ـ دون تأخير، وظهرت نتيجة الفعل وتحقق المقصود بإذن الله، رب الأسباب وخالقها والمتصرف فيها. قال تعالى:

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا

١١٤- سورة الشعراء، الآية: ٦١.

١١٥- سورة الشعراء، الآية: ٦٢.

١١٦- الخالدي، مع قصص السابقين في القرآن، ج ٣، ص ٨٥.

مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ٦٥ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴾(١١٧)، ﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ﴾(١١٨). فهذه لفتة أخرى، ومظهر آخر من مظاهر تفعيل القرآن لدور الإنسان في مراعاة الأسباب من خلال القصة القرآنية.

خامسًا: المظهر السادس: أمر الله تعالى لسيدنا موسى بضرب الحجر بعصاه، حينما احتاج بنو إسرائيل للماء، وعدم الاكتفاء بالدعاء والاستسقاء:

نجّا الله تبارك وتعالى موسى عليه السلام ومن معه من المؤمنين أجمعين من الهلاك، وأهلك فرعون وجنوده بالغرق في البحر، ودخلوا في البر والصحراء، والسير في الصحراء مظنة الهلاك من الجوع والعطش والتعب، ومن الله تعالى عليهم أثناء سيرهم بمنن وعطايا كثيرة تخفف عنهم حر شمس الصحراء. قال تعالى ممتنا على بني إسرائيل: ﴿ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾(١١٩).

ويبدو أن حاجتهم للماء قد اشتدت، فلم يغنهم ظل السحاب والغيوم التي كانت تظلهم بديلًا عن الماء، فطلبوا من موسى عليه السلام أن يستقي لهم ويصلي لله ويدعوه أن يسقيهم ـ والاستسقاء عند انحباس الماء والافتقار إليه شريعة ربانية وهو من الأسباب الإيمانية المعنوية التي تنال بها المقاصد ويقضي الله بها الحاجات ـ ولكن الله تعالى لم يشأ أن يسقيهم بسبب الاستسقاء، وكانت الحال مهيأة فالسماء ملبّدة بالغيوم مصدر القطر والغيث، غير أن القرآن الكريم يعطينا هنا درسًا آخر في اللجوء إلى الأسباب المادية، فيأمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يستعمل عصاه مرة أخرى فيضرب بها الحجر(١٢٠).

فضرب موسى عليه السلام استجابة لأمر الله تعالى الصخر ، والضرب وهو مظهر من مظاهر الحفر ـ سبب من أسباب استخراج الماء، وقد كان بمقدور الله تعالى أن يسقيهم بإنزال الماء من السماء، أو بنبع الماء دون تدخل من موسى وضرب الحجر بالعصا، ولكنه تبارك وتعالى وهوا لعليم الحكيم يريد أن يربي عباده على الأخذ بالأسباب، ويدعوهم إلى القيام بدورهم وبذل جهدهم، فيعزز ذلك في كل المناسبات والأحوال وقاية لهم عن التهاون والتفريط والتواكل. قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب

١١٧- سورة الشعراء، الآيات: ٦٠- ٦٦.

١١٨- سورة طه، الآية: ٧٧.

١١٩- سورة الأعراف، الآية: ١٦٠.

١٢٠- المرجع السابق، ج ٣، ص ٢٢٧.

بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾(١٢١). ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾(١٢٢). وهكذا نجد القرآن الكريم يوظف القصة القرآنية لتفعيل دور الإنسان في تحقيق مقاصده ونيل مطالبه.

سادسًا: المظهر السابع: أمر الله تعالى لبني إسرائيل أن يذبحوا بقرة وأن يضربوا الميت المقتول ببعضها:

وثمة درس قرآني آخر في الأمر بتعاطي الأسباب لتحقيق المقاصد يتجلى في قصة البقرة التي أمر الله بني إسرائيل بذبحها، وأن يضربوا الميت المجهول ببعضها حتى يخبرهم بقاتله. وخلاصة القصة ـ كما يفهم من خلال الآيات القرآنية ـ أنه قد وقعت حادثة قتل في بني إسرائيل ولم يعرف القاتل، فجاء أهل المقتول إلى موسى عليه السلام ليدلّهم على قاتله. فبلّغهم موسى عليه السلام أمر الله تعالى لهم وقال لهم: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، وأن تضربوا الميت بجزء منها، فينطق الميت المقتول ويخبر عن قاتله ثم يموت من فوره(١٢٣).

ولا تهمنا هنا التفاصيل والمراحل التي مرّ بها بنو إسرائيل حتى توصلوا إلى البقرة وذبحوها، إنما الذي يهمنا في هذه القصة هو تأكيد القرآن وتفعيله لدور الإنسان في تحقيق مقاصده وغاياته، وقد كان من السهل الميسور، أن يخبرهم الله تعالى بطريق الوحي إلى موسى مباشرة، أو أن ينطق المقتول ـ بقدرة الله ـ من غير ذبح بقرة ولا ضرب ببعضها، ولكن الحكمة الإلهية تقتضي أن يقوم الإنسان بدوره ويبذل طاقته ويسعى بنفسه من خلال الوسائل والأسباب المشروعة لتحقيق مقاصده. وهذا ما تجلى بوضوح في أمر الله تعالى ـ هنا ـ بني إسرائيل بالذبح والضرب، وأن يقوموا هم أنفسهم بذلك وليس موسى عليه السلام(١٢٤). قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةًۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَاۖ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ

١٢١- سورة البقرة، الآية: ٦٠.

١٢٢- سورة الأعراف، الآية: ١٦٠.

١٢٣- في ظلال القرآن، ج ١، ص ٧٧، الخالدي، مع قصص السابقين في القرآن، ج ٣، ص ٢٤٣- ٢٤٤.

١٢٤- انظر: الدوسري، صفوة المفاهيم والآثار، ج ٢، ص ١٨٠- ١٨١.

إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾(١٢٥).

المسألة الخامسة: في شأن مريم عليها السلام وأمر الله تعالى لها بهزّ النخلة حتى يسقط عليها التمر:

وهذه مريم ابنة عمران العفيفة المحصنة، وقصة حملها بعيسى عليه السلام وولادته بغير الأسباب المادية المألوفة في الحمل والولادة، **معجزة عظيمة وآية من آيات** قدرته تعالى في الخلق والإيجاد والتدبير وتحقيق المقاصد **والغايات**، فعندما أخبرت **مريم** بأنها سيكون لها ولد، أنكرت ذلك وعجبت منه ودهشت له، فهي تعلم أن السنة الإلهية في الحمل والإنجاب أن يكون ذلك بالتزاوج بين الذكر والأنثى، وتعلم من نفسها أنها حصان لم يمسسها بشر ولا تعرف طرق البغايا والسفاح والرذيلة، فتعجبت ويحق لها أن تتعجب، **ولكن الملك المرسل يطمئنها أن هذه مشيئة الله وإرادته وأمره الذي سبق به القضاء**(١٢٦).

فهي قصة عجيبة وحالة غريبة بكل أطوارها وتفاصيلها، ليس فيها لقدرة الإنسان وإرادته **مدخل، تولاها الله الحكيم العليم القدير، بدءًا** ونهاية، ولكن القرآن الكريم ـ وهو يربي الإنسان على تحمل المسؤولية وينبهه إلى ضرورة مباشرة ما بوسعه من الأسباب ـ يلتفت إلى مريم فيأمرها **بهزّ النخلة حتى** تحصل على التمر فتأكل منه وتشرب من الماء الذي أجراه الله لها بغير جهد منها. وأمر الله تعالى لمريم **بهزّ النخلة فيه ما فيه. فمريم أولًا: هي** إمرأة بطبعها ضعيفة البنية واهية القوة كما هو حال جنس النساء، **ثم ثانيًا:** هي في حالة الولادة، والمرأة أضعف ما تكون في هذه الحالة، لا تكاد تقوى على الحراك أو القيام، **ثم ثالثًا: النخلة شجرة راسخة لا تكاد** تقبل الهز كغيرها من بعض أنواع الشجر، فلا يقدر على هزها **الأشداء من الرجال الأقوياء**، ولم تجر العادة بذلك أصلًا. **أعبثًا تؤمر هذه المرأة العظيمة الشأن ـ والحالة هذه ـ** بهزّ النخلة وتحريكها؟ أم جهلًا بحقيقة الحال من الأمر بهذا الأمر؟! حاشاه تعالى إنه الحكيم العليم **المنّزه** عن كل عيب ونقص، **فلا يأمر أو ينهى إلا لعلة وحكمة وقصد عظيم**. إنه تعالى يدعو الإنسان ويحثه أن يجد ويجتهد ويعمل، ويبذل ما بوسعه من قدرة واستطاعة، ليحصل على مطلبه ويحقق قصده. إنها لفتة قرآنية من خلال هذه القصة، تدفع الإنسان ليعمل ويقوم بدوره(١٢٧).

١٢٥- سورة البقرة، الآيات: ٦٧- ٧٣.

١٢٦- انظر: سورة مريم، الآية: ١٦- ٢١.

١٢٧- انظر: التفسير المنير، ج ١٦، ص ٧٨.

يقول الصلاح عبد الفتاح الخالدي: "أمر الله بهزّ جذع النخلة لتأخذ بالأسباب، حيث رتب تساقط الرطب على هزّها جذع النخلة. وهذا درس إيماني عقيدي لها لتربط بين التوكل على الله وبين الأخذ بالأسباب، والأهم من هذا أنه درس إيماني عقيدي لنا نحن لنربط بين الأسباب والمسببات، وننسق بين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله، فكل مؤمن يعتقد جازمًا أن الله هو الضار النافع، وأنه لا مانع لما أعطى الله، ولا معطي لما منع الله، ومن ثم يتوكل على الله ويفوض أمره إليه، ويؤمن أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه. وهذا التوكل والتفويض يوجب عليه أن يأخذ بالأسباب، ويبذل الجهود ليأتيه ما قدّره الله له. وحركة مريم عليها السلام دليل على وجوب الأخذ بالأسباب لتأتي المقادير والأرزاق"(١٢٨).

والله جلا وعلا قادر على أن يسقط لها الرطب من غير هزّ الجذع ولكنه أمرها بالتسبب في إسقاطه بهز الجذع. وقد قال بعضهم في ذلك:

ألم تر أن الله قال لمريم وهزي إليك الجذع يساقط الرطب

ولو شاء أن تجنيه من غير هزه جنته ولكن كل شيء له سبب(١٢٩)

وفي قصتها كما قال أبو منصور الماتريدي رحمه الله: "دلالة على لزوم الكسب لأنه أمر مريم أن تهزّ النخلة لتتساقط عليها الرطب. ولو شاء لسقط من غير فصل يكون منها لتجتني هي، وذلك عليها أهون وأيسر"(١٣٠).

المسألة السادسة: ما في قصة أهل الكهف من مراعاة الأسباب:

قصة أصحاب الكهف إحدى القصص القرآنية، التي لم تخل من لفت النظر إلى الأخذ بالأسباب وتكليف الإنسان مسؤولية العمل وبذل الجهد ومراعاة الأسباب التي جعلها الله وسائل لتحقيق المقاصد ونيل المطالب.

وأصحاب الكهف فتية من المؤمنين بالله الموحّدين له، عانوا الظلم والاضطهاد والعذاب، الذي يمارسه في كل زمان الطغاة والمتجبرون في الأرض على المؤمنين الذين آمنوا بربهم، هؤلاء الفتية الشباب فرّوا بدينهم واعتزلوا قومهم المشركين وما يعبدون من دون الله، فشملتهم عناية الله وهداهم إلى أسباب النجاة وأمرهم أن يسلكوها ففعلوا ما أمروا به. أمرهم تبارك وتعالى أن يلتجئوا إلى كهف من الكهوف

١٢٨- الخالدي، القصص القرآني، ج ٤، ص ٢٥٧.

١٢٩- نقلا عن: أضواء البيان، ج ٤، ص ٢٥١.

١٣٠- أبو منصور الماتريدي، تأويلات أهل السنة، ج ٣، ص٢٦٣.

يحتمون به ويستترون عن الأنظار، واللجوء إلى الكهوف والمغارات فرارًا من الأعداء والخصوم، أسلوب عقلي وشرعي متبع يختفي به المطارد، وقد كان بمقدور الله تعالى أن يحميهم وينجيهم ويحفظهم بما يشاء من غير كهف ولا مغارة أو سرداب، ولكن القرآن الكريم حريص على مراعاة الأسباب، وتكليف الإنسان أن يأخذ بها ويقوم بدوره مهما كان ذلك الدور. واستجاب الفتية لأمر الله فأووا إلى الكهف ونشر الله عليهم رحمته، ورعاهم من كل سوء، حفظهم من خطر العيون والمباحث والاستخبارات بلجوئهم إلى الكهف، وحفظهم من خطر الشمس أن تلفح أجسادهم فكانت تميل عنهم يمينًا وشمالًا عند الشروق وعند الغروب. وحفظهم من خطر الرطوبة وبرودة الأرض فتأكل أجسامهم فكان تعالى يقلّبهم ذات اليمين وذات الشمال من جنب إلى جنب. ولو تركوا للعوامل المادية لفعلت بهم فعلها، ولكن العناية الإلهية والإرادة الربانية حالت دون ذلك كله، ففعل بهم أسبابًا مضادة، وفي الحالين فالقرآن يدعو إلى مراعاة الأسباب المادية لتحقيق الغايات والمقاصد. وقد تعجب الرازي رحمه الله لهذا، ولكنه لم يربط ذلك بمراعاة الأسباب فقال: "وأقول هذا عجيب لأنه تعالى لما قدر على أن يمسك حياتهم مدة ثلثمائة سنة وأكثر فلم لا يقدر على حفظ أجسادهم من غير تقليب؟"(١٣١). قال تعالى مخاطبًا أولئك الفتية: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴾(١٣٢).

والملاحظ هنا أنه لما تعذر على أصحاب الكهف، بعد أن ضرب الله على آذانهم وناموا، أن يباشروا هم أنفسهم من الأسباب ما يحفظهم من رطوبة الكهف وخطر المكث الطويل على هيئة واحدة فتأكلهم الأرضة، تولى الله جل وعلا العليم الحكيم من الأسباب المادية نيابة عنهم، إشعارًا لنا بضرورة الالتفات إلى الأسباب المادية وعدم إهمالها، ولو تركهم على رقدة واحدة للحقهم من الأذى والفساد، وكان بمقدوره تعالى أن يحفظهم بدون تقليب ولا تحويل من جنب إلى جنب، ولكنه جل وعلا لا يريد للإنسان أن يهمل الأسباب المناسبة للمقصد المناسب، وإلا فإنه تعالى قد حفظ كلبهم وهو على هيئة واحدة وجلسة واحدة مع طول المدة، فإنه تعالى رب الأسباب وخالقها.

١٣١- تفسير الرازي، ج ٢١، ص ١٠٢.

١٣٢- سورة الكهف، الآيات: ١٦-١٨.

قال أبو منصور الماتريدي رحمه الله: "قال بعض أهل التأويل: إنما كان يقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ليدفع عنهم أذى الأرض وضررها لئلا يفسدوا ويتلاشوا، وإن كان قادرًا أن يدفع عنهم الأذى وضرر الأرض لا بتقليب من جانب إلى جانب.. وقوله على التعليم منه إياهم : أن كيف يتقي الأذى؟ وكيف يدفع الضرر؟"(١٣٣)

المسألة السابعة: في شأن سيدنا لوط عليه السلام وأمر الله تعالى له أن يسري بأهله ليلًا:

قصة لوط عليه السلام ذات ارتباط بقصة سيدنا إبراهيم عليه السلام وهي، كما صورها القرآن الكريم في عدة مواضع، تتلخص في أن الملائكة الذين جاءوا إبراهيم على هيئة ضيوف غرباء، خرجوا من عنده إلى لوط ليقوموا بمهمة تدمير قرى قوم لوط الذين انتشرت فيهم الفاحشة وفسدت فطرتهم وفشا فيهم الشذوذ والانحراف الجنسي بحيث صاروا يشتهون الذكور دون النساء، يتجلى ذلك في مشهد وصول الملائكة على هيئة رجال حسان إلى منزل لوط عليه السلام، فهرع رجال قومه يراودونه عن ضيوفه، وحاول لوط عليه السلام بكل الوسائل أن يصدهم عن فعلهم، ولكنهم أصروا ورفضوا كل الحلول التي قدّمها لهم نبيهم، وتأزم الموقف النفسي لسيدنا لوط وضاق بهم ذرعًا، وشعر بضعفه أمامهم وعجزه عن صدهم ومنعهم من الاعتداء على ضيوفه الكرام، إنه يشعر بالخزي والعار والفضيحة لو تمكن قومه من ضيوفه، فالاعتداء على الضيف في نظر الكرام أبشع وأشد وقعًا من الاعتداء عليهم أنفسهم ويتألم لهذا الأمر ألمًا شديدًا، ويحار فلا يدري ماذا بوسعه أن يفعل فقال معلنًا عن ضعفه وقلة حيلته متهددًا ومتوعدًا. ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾(١٣٤).

ولما أحس الملائكة بحال لوط وتحرقه لأجلهم، أخبروه بحقيقتهم وطمأنوه أن قومه لن يصلوا إليهم ولن يتمكنوا منهم، إنهم رسل الله إليه فل يبتئس ولا يحزن وليطمئن، وأطلعوه على المهمة التي جاءوا بها وبشروه بالنجاة مع كل مَنْ آمن معه من أهله إلا امرأته التي آثرت الكفر على الإيمان فكانت من الهالكين. قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾(١٣٥).

وهنا يتجلى الدرس القرآني المتكرر في ثنايا القصص القرآني، في الدعوة إلى تفعيل دور الإنسان

١٣٣- تأويلات أهل السنة، ج ٣، ص ٢١٧.

١٣٤- سورة هود، الآية: ٨٠.

١٣٥- سورة هود، الآية: ٨١.

وأمره باتباع الأسباب المادية ومراعاة وسائل الحماية والاحتياط التي بها يحقق مقاصده وينال مطالبه، ويصل إلى ما يريد بإذن الله تعالى. فعندما أراد الله جل وعلا أن يهلك قوم لوط عقابًا لهم على سوء صنيعهم، صدر الأمر الإلهي لسيدنا لوط أن يخرج بأهله ليلًا متخفيًا ومتسترًا تحت جنح الظلام، فذلك أرجى أن لا يشعر بهم أحد، فسرى بقومه ليلًا ولم يخرج بهم نهارًا بصورة علنية، فهو نبي يشرع لغيره، بل يخرج بأسلوب يضمن له النجاة بإذن الله، وليس له إلا السير ليلًا. وهذا أسلوب عقلي وشرعي متبع، فقد سلكه سيدنا موسى عليه السلام، وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في الإسراء والمعراج، وفي الهجرة من مكة إلى المدينة. واستجاب سيدنا لوط لأمر الله له بالخروج ليلًا، فكتب الله له النجاة والسلامة، ونجا من العذاب الذي حل بقومه، ونجا قبل ذلك من معرفة قومه بخروجه من بينهم. وهكذا فالإنسان مأمور شرعًا أن يتخذ من الأسباب والوسائل والإجراءات المشروعة التي جعلها الله تعالى أسبابًا لتحقيق المقاصد ونيل المطالب، استجابة لأمر الله تعالى وتأسيًا واتباعًا لأنبياء الله ورسله عليهم السلام.

المسألة الثامنة: إقرار القرآن الكريم للآخذين بالأسباب وموافقتهم على ذلك:

لم يقتصر القرآن الكريم على الأسلوب المباشر الصريح في دعوة الإنسان إلى تحمل دوره والقيام بمباشرة الأسباب المشروعة في سبيل تحقيق مقاصده وإدراك مطالبه، ولكنه سلك مسلكًا آخر في التأكيد على هذا المطلب الشرعي، يظهر ذلك من خلال مباركة مسلك الآخذين بالأسباب، وإقرارهم على ما فعلوه وموافقتهم عليه وسكوته عن الإجراءات السببية والتدابير الوقائية والوسائل الأمنية وكل ما من شأنه أن يفعّل دور الإنسان في تحقيق مقاصده لجلب مصلحة أو درء مضرة ودفع مفسدة، ويتجلى هذا في مواضع كثيرة في ثنايا القصص القرآني. الأمر الذي يدل على مدى اهتمام القرآن في الدعوة إلى تفعيل دور الإنسان وحثه على الجد والعمل في تحقيق مطالبه المشروعة، ويدعونا إلى وجوب مراعاة الأسباب والاقتداء والاهتداء بمن قص الله تعالى علينا أخبارهم.

وسأقتصر على ذكر خمسة نماذج، كلها تكشف عن أن القرآن الكريم يدعو إلى تفعيل دور الإنسان في الوصول إلى مقاصده، ولا يهمل العمل وبذل الجهد، ومباشرة الأسباب التي جعلها الله تعالى موصلة إلى مسبباتها ونتائجها.

١- النموذج الأول: إقرار الله تعالى لأهل الكهف فيما أخذوه من وسائل الحيطة والحذر:

يتمثل هذا النموذج في إقرار الله تعالى لأهل الكهف بعد أن بعثهم جل وعلا من رقدتهم وأفاقهم من نومهم الطويل، وأنهم احتاجوا للطعام فأرسلوا أحدهم ولم يذهبوا جميعًا، وطلبوا منه أن يبحث لهم عن طعام طيب طاهر حلال، وأن يتلطف في البحث بحيث لا يشعر بهم خصومهم الوثنيون،

من أجل أن يأمنوا على أنفسهم ويحفظوا حياتهم.

قال تعالى في بيان هذا المشهد من قصتهم: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾(١٣٦).

فانظر إلى حال هؤلاء الفتية المؤمنين المطاردين الخائفين من بطش عدوهم، كيف أنهم في كل تحركاتهم كانوا محتاطين مراعين الأسباب آخذين بكل وسائل الحيطة والحذر، فأمروا صاحبهم الذي أرسلوه ليبحث لهم عن طعام يسدون به حاجتهم من الجوع ويحفظون حياتهم، **أن يتلطف. واللطف** واللطافة كما يقول الراغب: "يعبر بهما عن الحركة الخفيفة وعن تعاطي الأمور الدقيقة، وقد يعبر باللطائف عما لا تدركه الحاسة"(١٣٧)، **و**أن يبحث بلطف وخفة ويقظة وحذر وانتباه من غير طيش أو تسرع أو تهور أو اندفاع أو رعونة كما هو حال **صاحب الحاجة الأرعن**، لأن المظنون إن فعل كما أمروه لم يلفت الأنظار إليه ولا يشعر به أحد من أهل السوق فيفضح حاله ويدل الأعداء عليهم.

والتلطف مبدأ عقلي وشرعي، من شأنه ـ **بتوفيق الله ومشيئته ـ أن يضمن لصاحبه تحقيق مقصده** وإدراك مطلبه، بخلاف الطيش والرعونة والتسرع والاندفاع الذي من شأنه أن يفوت على الإنسان **ما** يسعى إليه في كثير من الحالات. وقد أقرّ القرآن الكريم هذا الإجراء الذي اتبعه أهل الكهف **وسكت عليه، وكأنه يقول لنا هذا طريق العقل فاتبعوه. يقول الدكتور الخالدي:**

> "أوصى **الفتية مبعوثهم بأن يتلطف مع** أهل المدينة عندما يقابلهم وعندما يشتري منهم، وتوصيتهم له بالتلطف التفات ذكي منهم إلى أهمية اللطف واليسر والسماحة في الحياة وفي الاتصال بالناس والتعامل معهم وفي البيع والشراء. وهي لفتة ضرورية لكل مسلم ووصية **هامة له، إن حياته لن تستقيم إلا بالتلطف وإن علاقته مع الآخرين لن تتوثق إلا بالتلطف** وإن تعامله معهم في مختلف مجالات العمل ومرافق الحياة لن ينجح إلا بالتلطف. **وشتّان** بين رجل لطيف مع الناس، وبين رجل آخر سيء نكد عصبي المزاج حاد الطبع. **وقد أشار**

١٣٦- سورة الكهف، الآيتان: ١٩- ٢٠.

١٣٧- أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ص ٤٥٠.

القرآن إلى فضيلة اللطف، وأهمية السماحة واليسر، ونعمة اللين مع الناس، عندما امتن الله على رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك الخلق النبوي الكريم فقال له: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾(١٣٨). وحثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة على اللطف والرفق واللين مع المسلمين منها ما رواه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من يحرم الرفق، يحرم الخير كله"(١٣٩). وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفيق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف"(١٤٠).

إنها دعوة إلينا، من أصحاب الكهف ومن القرآن ومن رسول الله صلى الله عليه وسلم كي نتلطف في حياتنا، نتلطف في أقوالنا وأعمالنا، عندها نجد الحياة راحة وسعادة وبركة وهناء، ونجد الصلات مع الآخرين يسرًا ولينًا وخيرًا"(١٤١). وهي حث على التحرز والاستخفاء والبعد عن مواقع الفتن من الدين، واستعمال الكتمان الذي يدرأ عن الإنسان الشر(١٤٢). وهي بالتالي دعوة إلى اتباع الأسباب ومراعاة كل وسيلة مشروعة تساعد بإذن الله في تحقيق مقاصدنا وما نسعى إليه.

٢- النموذج الثاني: إقرار القرآن لذي القرنين على ما اتبعه من الأسباب:

وردت قصة ذي القرنين في سورة الكهف (الآية ٨٣- ٩٨) في الرد على أحد أسئلة مشركي مكة بتوجيه من يهود المدينة المنورة، فقص القرآن قصته وكشف عن حقيقته، وقد فصل كُتّاب ومؤلفو القصص القرآني ذلك من وجوه كثيرة(١٤٣).

والملاحظ هنا هو أن ذا القرنين، بالرغم من أن الله تعالى قد هيّأ له الأسباب ومكن له في الأرض، وآتاه من كل شيء مما يحتاج إليه سببًا، كما يقول ابن كثير رحمه الله،(١٤٤) لم يهمل ولم يفوّت

١٣٨- سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

١٣٩- صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب البر والصلة، باب ٢٣، حديث رقم: ٢٥٩٢.

١٤٠- المرجع السابق، حديث رقم: ٢٥٩٣.

١٤١- الخالدي، مع قصص السابقين، ص ٧٧- ٧٩.

١٤٢- انظر: السعدي، تيسير اللطيف ، ص ٢٢٨.

١٤٣- صلاح الخالدي، مع قصص السابقين، ص ٢٣٧- ٢٥٤.

١٤٤- تفسير ابن كثير، ج ٣، ص ١٠١.

الاستفادة واستعمال ما منحه الله من مظاهر ووسائل واختيار طرق وأسباب، وأنه، كما يقول الخالدي، قد أحسن استغلالها وتوظيفها والتعامل معها ﴿فَأَتۡبَعَ سَبَبًا﴾ أي أخذ بتلك الأسباب والوسائل. فلم يركن إلى قاعدة التوكل السلبي، ولم يكتف بوعد الله له بالتمكين في الأرض والنصر والتأييد المطلق، ليقينه بأن مباشرة الأسباب مطلب شرعي ومسلك عقلي وهو من التوكل الإيجابي ولا يُعارضه، بل إن ترك الأسباب مضاد للتوكل مناف لمقصد الشرع الحكيم.

كثيرون يمنحهم الله ما يمنحهم من مظاهر وأسباب ووسائل نحو النجاح والتمكين والفوز، وهذه الأسباب منها ما هو مادي حسي، ومنها ما هو معنوي مثل الفطنة والذكاء والصحة والقوة والشخصية وحسن المعاشرة... وغير ذلك. وكثيرون تتاح لهم أسباب النجاح والتمكين، لكنهم لا يستفيدون مما منح الله لهم، بل أكثرهم يبددون ما منح الله لهم ويضيعونه ولا ينتهزون الفرصة ولا يغتنمون المناسبة، ولا يستغلون الظرف والوقت وبذلك تضيع المناسبة الممكنة. والقليلون هم الذين يستفيدون مما منح الله لهم ويحسنون التعامل معه واستغلاله، هؤلاء هم الأذكياء العقلاء. ولقد كان ذو القرنين من هذا القليل، حيث أتبع سببًا(١٤٥).

والمقصود هنا أن ننتبه إلى أن القرآن الكريم قد أقرّ ذا القرنين على مباشرته الأسباب وذكره على وجه المدح والموافقة، ولم ينكر عليه شيئًا من ذلك. انظر إليه في قصة بناء السد، وقد عُرض عليه أن يأخذ أجرة على فعله، فيرفض هذا العرض، مع شعوره بإمداد الله له وتمكينه له، غير أنه لم يترك مباشرة الأسباب وتحمل المسؤولية، فيطلب من أولئك القوم أن يساعدوه فيمدوه بقوة ويوفروا له أدوات البناء ووسائل العمل المادية فقال لهم: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ٩٥ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾(١٤٦). قوله: "أعينوني بقوة"، "أجعل"، "آتوني"، أفرغ" كلها أفعال ومباشرة وحركة وجهد ونشاط؛ والقرآن الكريم يعرض ذلك على وجه الإقرار والموافقة تفعيلًا لدور الإنسان، وحضًا له على إتباع الأسباب المادية المشروعة في سبيل تحقيق مقاصده، فلا يركن إلى مطلق التأييد الرباني والمدد الإلهي فيتواكل ويتخاذل ويستسلم لواقع الحال، فإنه على قدر بذل الجهد يكون الفوز والظفر(١٤٧).

١٤٥- الخالدي، مع قصص السابقين، ص ٣٢٥.

١٤٦- سورة الكهف، الآيتان: ٩٥- ٩٦.

١٤٧- محمد جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٩٧٨م، ج ١١، ص ٨٨.

٣- النموذج الثالث: إقرار القرآن لسيدنا يعقوب فيما أمر أولاده أن لا يدخلوا من باب واحد خشية أن تصيبهم العين:

كان فيما ذكره الله تعالى من قصة يوسف عليه السلام أن يعقوب عليه السلام، قد أمر أولاده عندما ذهبوا في رحلة التجارة إلى مصر أن يدخلوا من أبواب متفرقة، **وأن لا يدخلوا من باب واحد،** وكانوا أحد عشر رجلًا عليهم من مظاهر الجمال والتشابه والقوة والفتوة **ما يلفت الأنظار** ويدعو إلى الاستحسان والإعجاب المنبعث من النفوس وتحديق العيون مما يخشى معه ـ **والحالة هذه** ـ أن يحسدوا ويصابوا بالعين ـ والعين حق ـ **فيتأذوا من جراء ذلك،** فلما خشي يعقوب عليه السلام وهو الأب الشيخ **الرحيم الذي أضناه الحزن** على فقد يوسف عليه السلام، **أحب أولاده إليه،** خشي عليهم أن يحسدهم الناس ويصيبوهم بالعين(١٤٨). قال تعالى على لسان يعقوب: ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾(١٤٩).

يقول محمد الأمين المختار الشنقيطي: "**فأمرهم عليه السلام** بتعاطي السبب، وتسبب هو في **ذلك بالأمر** به لأنه يخاف عليهم أن **تصيبهم** الناس بالعين لأنهم أحد عشر رجلًا، **أبناء رجل واحد، وهم** أهل جمال وكمال وبسطة في الأجسام، فدخولهم من باب واحد مظنة لأن تصيبهم العين، **فأمرهم أبوهم** بالتفرق والدخول من أبواب متفرقة تعاطيًا للسبب في السلامة من إصابة العين كما قال غير واحد من علماء السلف. **ومع هذا التسبب فقد قال** الله تعالى عنه: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾(١٥٠). فانظر كيف جمع بين التسبب في قوله: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ ﴾ وبين التوكل على الله في قوله: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ وهذا أمر لا يخفى إلا على من طمس الله بصيرته"(١٥١).

وفي هذا دلالة ظاهرة لنا على أن استعمال الأسباب الدافعة للعين أو الرافعة لها بعد نزولها **أمر** غير ممنوع، وإن كان لا يقع شيء إلا بقضاء **الله وقدره، فإن الأسباب أيضًا من القضاء والقدر**(١٥٢). وفي

١٤٨- أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل،** طبعة دار الفكر، د. ت، ج ٢، ص ١٤٦.

١٤٩- سورة يوسف، الآية: ٦٧.

١٥٠- سورة يوسف، الآية: ٦٧.

١٥١- أضواء البيان، ج ٤، ص ٢٥١.

١٥٢- انظر: السعدي، تيسير اللطيف، ص ٢٤٤.

هذا دلالة ظاهرة لنا على أن استعمال الأسباب الدافعة للعين أو الرافعة لها بعد نزولها غير ممنوع، وإن كان لا يقع شيء إلا بقضاء الله وقدره، فإن الأسباب أيضًا من القضاء والقدر(١٥٣)، ولم يقف القرآن الكريم عند ذكر هذا الإرشاد الأبوي من يعقوب لبنيه بل أشار، من غير نكير ولا استغراب، موافقًا لما فعل يعقوب وأولاده من استجابتهم لطلبه وأنهم دخلوا كما أمرهم أبوهم من أبواب متفرقة، ولم يدخلوا من باب واحد، وقضوا حاجة أبيهم النفسية، وتحقق له ما أمر به ورغب فيه من اتخاذ وسائل وأسباب الوقاية والاحتياط المشروع. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١٥٤). وهكذا نلحظ أن القرآن الكريم من خلال هذه القضية ينقل إلينا خبر ما قام به يعقوب عليه السلام وأولاده من مراعاة الأسباب الظاهرة، موافقًا لما فعلوا جميعًا ومقرًا بما نهجوا من غير نكير عليهم ولا نفي لمسلكهم، فهذا مظهر واضح جلي يدلّ على تفعيل القرآن لدور الإنسان في تحقيق مقاصده ورغباته من خلال القصة القرآنية، فهو أمر يوحي بضرورة التأسي بصاحب القصة ـ نبيًا كان أو غير نبي ـ في اتباع قانون السببية ومباشرة ما يستطاع ويقدر عليه مما يساهم في تحقيق المقاصد وإدراك المطالب.

٤- النموذج الرابع: إقرار القرآن لخطة سيدنا يوسف الاقتصادية لمواجهة القحط والجدب:

وثمة مظهر آخر من مظاهر تفعيل القرآن لدور الإنسان من باب الإقرار والموافقة لما فعله سيدنا يوسف عليه السلام من اتخاذ الإجراءات الوقائية الاقتصادية لمواجهة سنوات الجدب والقحط التي أصابت أهل مصر، كما وضحه القرآن الكريم للرؤيا التي رآها الملك، وطلبهم من سيدنا يوسف عليه السلام أن يعبرها لهم فجاء تعبير يوسف لها، وأشار به عليه السلام من اتخاذ الأسباب المادية التي من شأنها أن تخفف من وطأة القحط والجفاف التي ستمر بها البلاد خلال السنوات السبع القادمة.

قال تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّيَ أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾(١٥٥)، لم يكتف يوسف عليه السلام بتأويل الرؤيا على القدر المطلوب، بل قدم مع هذا التأويل التدبير المحكم الذي ينبغي أن يكون إلى جانب ما كشفت عنه الرؤيا من أحداث، لقد كان

١٥٣- المرجع السابق، ص ٢٢٤.

١٥٤- سورة يوسف، الآية: ٦٨.

١٥٥- سورة يوسف، الآيتان: ٤٦-٤٧.

يمكن أن يقول يوسف في تأويل الرؤيا: إن مصر تستقبل منذ اليوم سبع سنين من الخصب، حيث يجيء النيل بالماء الذي يروي الأرض ويخصبها خلال تلك المدة، ثم يأتي بعد ذلك سبع سنين مجدبة، يمسك فيها النيل ماءه فلا ينبت زرع خلال تلك السنين، ذلك هو تأويل سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات. كان يوسف يمكنه أن يقف عند هذا الحد حسب الطلب، ولكن هذا التأويل يصبح عديم الجدوى إذا لم يقم من ورائه التدبير المحكم المناسب له. ولهذا فإنه عليه السلام دعا إلى الجد في زراعة الحبوب خلال السنوات السبع المقبلة، وأن ما يحصد من هذا الزرع يترك في سنابله حتى لا يُصيبه تسوّس أو عطب، ويحفظ المحصول للسنوات القادمة إلا ما يحتاج الناس إليه لطعامهم على أن يكون ذلك في حدود الاعتدال والقصد الذي يبلغ حد التقتير(١٥٦).

فالقرآن وهو يقص علينا هذا المقطع من قصة يوسف ينقل لنا معالم الخطة الاقتصادية الإجرائية التي نصح بها يوسف عليه السلام أهل مصر، والأسباب المادية المناسبة لواقع الحال التي يجب عليهم أن يتبعوها حتى يواجهوا بسنوات الجدب والقحط والجوع، فأمرهم أن يزرعوا لمدة سبع سنوات، ويكثروا من زراعة الحبوب وخاصة القمح الذي به قوام حياة الناس، ثم أمرهم أن يدّخروه ويحتفظوا به ويتركوه في سنبله وقشوره، وهو إجراء علمي وعقلي سليم وصحيح، فإن الحبوب والثمار إذا تركت في سنابلها وقشورها سلمت من التسوس والفساد ودامت صلاحيتها سنوات طويلة، بخلاف ما لو فصلت عن قشورها فإنها تكون عرضة للفساد السريع، وليس هذا فحسب بل يأمرهم أن يقتصدوا في الأكل، والاقتصاد في النفقة مطلب عقلي وشرعي ومسلك مادي مأمور به لم يغب عن عقل سيدنا يوسف أن يأمرهم به ويحذرهم من التجاوز في الإسراف والتبذير ويدعوهم إلى ما يعرف اليوم بالتقنين وترشيد الاستهلاك(١٥٧). فنلاحظ أن سيدنا يوسف عليه السلام قد استعمل عقله وأخذ بالأسباب المادية والسبل والوسائل الوقائية التي من شأنها بإذن الله ـ أن تحقق للإنسان مقاصده وغاياته(١٥٨). والقرآن الكريم يقص علينا ذلك من باب الإقرار والموافقة والرضا بما صنع يوسف، وهو بذلك يدفع الإنسان نحو

١٥٦- عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، دار المعرفة، بيروت، ص ٤٥١.

١٥٧- انظر: الخالدي، مع قصص السابقين، ج٢، ص١١٦، عبد الله العلمي، مؤتمر سورة يوسف، مؤسسة دار الفكر، بيروت، ١٩٧٠م، ج٢، ص٨٢٠، مجد أحمد جاد المولى، قصص القرآن، دار الرشيد، ١٩٨٧م، ص ٩٣.

١٥٨- وهي من سيدنا يوسف إشارة برأي نبيل نافع بحسب طعام مصر وحنطتها التي لا تبقى عامين بوجه إلا بحيلة إبقائها في السنبل. انظر: القاضي أبو محمد عبد الحق بن غالب ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: المجلس العلمي بمكناس، عام ١٩٨٨م، ج ٩، ص ٣١٣.

تعاطي الأسباب المشروعة ومباشرة الوسائل المتاحة، فلا يدعه يستسلم للواقع ولا يقره على التواكل والتخاذل، وهذا مظهر آخر من مظاهر تفعيل القرآن لدور الإنسان في تحقيق المقاصد من خلال القصة القرآنية.

وما أحوج الناس اليوم في هذه المرحلة المعاصرة اليوم التي يمرُّ بها الناس ويواجهونها من غلاء الأسعار وارتفاع أثمان الحاجات ومتطلبات الحياة، فما أحوجنا إلى اتباع الأسباب والوسائل والتدابير الاقتصادية المناسبة التي من شأنها أن تخفف حدة المعاناة من جراء ذلك.

٥- النموذج الخامس: إقرار القرآن الكريم لإجراء النملة واحترازها بدخول مساكنها خشية تضررها من جيش سليمان:

القصص القرآني شمولي لم يقتصر على شخص الإنسان كمحور رئيس في أخباره وقضاياه، **بل تعدّاه** إلى بيان سلوك غيره من الحيوان والطير والحشرات، فدخل في القصة **القرآنية**: النمل والهدهد والنحل والذباب والعنكبوت، ولا غرابة أن نجد بعض سور القرآن الكريم قد سميت بأسمائها.

وفي قصة سيدنا سليمان عليه السلام، وقد علّمه الله تعالى كلام الطير وسائر المخلوقات، يفهمها وهي تفهمه في نفس الوقت كما أخبر القرآن عن ذلك بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ﴾(١٥٩). وفي قصته عليه السلام مشهد رائع **من مشاهد الأخذ بالأسباب وإقرار القرآن له، فهذه** النملة وقد شاهدت جيش سليمان مقبلًا تجاه مواطنها وبيوتها في وادي النمل، حيث شعرت بالخطر على رفاقها وبني قومها وأدركت بفطرتها أنه يتعين عليها أن تتخذ الإجراءات والأسباب التي تحميها وتقيها خطر الجيش الزاحف نحوها، وهي لا تستطيع المقاومة أو الدفاع والمواجهة، وليس أمامها إلا مسلك واحد وهو الاختفاء والاحتماء والانسحاب والدخول في المساكن **والبيوت، فتوجهت بنداء عاجل** إلى **أفراد النمل** وجيوشه المنتشرة في أنحاء الوادي تجمع طعامها محذرة لهم من الهلاك ومرشدة لهم إلى سبيل الوقاية فأمرتهم أن يدخلوا مساكنهم ريثما يمرّ جيش سليمان ويجتاز واديها **وقراها، فتسلم ولا يلحقها الأذى.**

ويسجل القرآن الكريم هذه الصورة ويسرد قصة هذه **النحلة ويذكر إجراءها مقرًا** لها بما فعلت **من الأسباب** المقدورة التي من شأنها أن تحقق لفاعلها ـ **بإذن الله ـ مقصده وغايته.** قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ١٧ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ

١٥٩- سورة النمل، الآية: ١٦.

مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾(١٦٠). وعندما تكلمت النملة أمتها بهذه النصيحة، استمع النمل لها، واستجاب لها، وسارعت النمال إلى دخول مساكنها والاحتماء من الخطر في بيوتها(١٦١).

وكان هذا إجراء عقليًا وتصرفًا عسكريًا سليمًا رضي به القرآن وباركه وأقرّ فاعله. وهي دعوة لكل من يعرض للخطر أن يبحث عن الأسباب والوسائل المشروعة التي يدرأ بها عن نفسه الخطر ويحفظ به بقاءه وحياته ولا يستسلم ولا يتخاذل، ولا يركن إلى التدخل الإلهي المباشر بدعوى التوكل على الله، أو بدعوى أن الأسباب لا تغني من القدر شيئًا، فإن الأخذ بالأسباب من القدر نفسه، وهو مبدأ شرعي لا يجوز التفريط به، كما ظهر لنا من خلال القصة القرآنية في كثير من المشاهد.

وما أحوجنا اليوم إلى ناصح أمين وغيور على واقع حال الأمة أن يرشدها إلى الأسباب والوسائل الأمنية والعسكرية والسياسية التي تحمينا من خطر الأعداء وأساليبهم الكيدية، وما أجدر الأمة أن تسمع له وتستجيب لندائه لعلها أن تحظى بالسلامة كما حظيت أمة النمل بالنجاة من الهلاك.

الخاتمة:

بعد استعراض جملة من القصص القرآنية وإبراز مواطن الدعوة فيها إلى تفعيل دور الإنسان في مراعاة الأسباب من أجل تحقيق مقاصده ونيل مطالبه المشروعة، انتهى البحث إلى جملة من النتائج أهمها:

١- أن الأسباب ذات تأثير في المسببات، وأن المعلولات مرتبطة بالعلل، إذا توفرت الشروط وانتفت الموانع.

٢- أن نفي تأثير الأسباب مصادم للشرع والعقل.

٣- أن القول بأن تأثير الأسباب مطّرد ومطلق وفي معزل عن المشيئة الإلهية والإرادة الربانية، قول باطل؛ إذ كل ما يقع ويحدث في الكون هو بمشيئة الله وإرادته.

٤- الأخذ بالأسباب سنة إلهية في الكون كله، دعا الشرع إلى مراعاتها.

٥- الأخذ بالأسباب مبدأ حكيم، وفيه مصالح عديدة تعود على الإنسان.

٦- أن الأنبياء والرسل ـ وهم المؤيدون من الله تعالى ـ قد أمروا بمباشرة الأسباب في كثير من المواطن وأنهم استجابوا لذلك وفعلوا ما أمروا به.

١٦٠- سورة النمل، الآيتان: ١٧- ١٨.

١٦١- انظر: الخالدي، مع قصص السابقين، ج ٣، ص ٥٢٠.

٧- أن الإنسان مأمور شرعًا وعقلًا أن يتخذ من الأسباب المشروعة ما من شأنه ـ بإذن الله ـ أن يحقق مقاصده اقتداء بالأنبياء والرسل، وأن ذلك لا يتعارض مع القضاء والقدر ولا مع التوكل على الله تعالى الذي أمرنا به.

٨- أن الأمر بمباشرة الأسباب في القرآن لم يقتصر على الإنسان والمكلفين، بل تعداه إلى الحيوان غير المكلف.

٩- أن القرآن الكريم لم يقتصر على الأسلوب المباشر في الدعوة إلى مباشرة الأسباب، وإنما دعا إلى ذلك أيضًا بطريق غير مباشر، حيث أقرّ السالكين طريق الأسباب وسكت على صنيعهم ونقل إلينا أساليبهم تأييدًا لما فعلوه.

١٠- أن القرآن الكريم دعا إلى تفعيل دور الإنسان في مراعاة الأسباب ومباشرتها من خلال القصة القرآنية.

The Usage of Resources and their role in achieving the objectives "The applied study of Qur┐nic Story"

This paper highlights the Qur┐nic incentive to affirm and pursue cause- effect process of nature operative in this world, through the medium of parables and stories, by employing story as effective medium to bring home significant lessons in this respect. The Qur┐n underlines the vital role of human agency in achieving such objectives as are prescribed for man by Allah. Despite an obvious element of miracle in the Qur┐nic stories of the past especially in those relating to the Prophets and some other figures, the various actors have been projected in the Qur┐nic stories as agents freely pursuing the normal course of nature. The writer concludes, on the basis of numerous illustrations from this particular genre of the Qur┐n, that Divine pre-knowledge and pre-destination of events does not preclude the limited, yet necessary role of human agency.

****